

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد-تلمسان
كلية الآداب و العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في البلاغة والأسلوبية

التّشبيه عند المبرد

لجنة المناقشة

☞ أ.د. محمد اللطيف شريف رئيسا
☞ د. عبد الجليل مصطفى مشرفا
☞ د. عبد الرحمن خربوش عضوا
☞ د. محمد موسوي عضوا

إعداد الطالبة :

وهيبة بن حدو

السنة الجامعية: 1426هـ - 1427هـ / 2005م - 2006م

كلمة شكر

أحمد الله وأشكره، فإنني ما كنت بالغة ما بلغت
إلا بفضل وجوده وكرمه .

ثم أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل
الدكتور « عبد الجليل مصطفى » الذي قبل الإشراف
على مذكرتي بصدور رحمة . وأسأل الله تعالى أن يجزل له
الأجر في الدارين .

كما أتوجه بالتقدير الصادق لأعضاء لجنة المناقشة،
لتفضلوا بمراجعة هذه الدراسة، استذركم لثقافتكم،
وإسهامكم في تكميل فائدتها. فليس جميعا عميق التقدير.
وأشكر معهد اللغة العربية وآدابها بجميع
أساتذته الذين وجدتهم عند هم التعاون والتجاوب.

إهداء

إلى والديّ الكريمين
إلى زوجي وأولادي

إلى كل من ساعدني ولو بكلمة طيبة

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۖ

وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۖ ﴾

الآية 10 من سورة الكهف

بسم الله الذي لا فوز إلا في طاعته، و لا عزّ إلا في التذلل لعظمته، و الحمد لله الذي جعل العلم فريضة على كل مسلم، و جعل العربية أشرف لسان، فأنزل كتابه المحكم في أساليبها الحسان، و الصلاة و السلام على أفصح العرب لهجة و أبلغهم حجّة و على آله الأجداد و صحابته الذين فتحوا البلاد، و نشروا لغة التنزيل في الآفاق و حبوها للأعاجم ممن استقامت ألسنتهم على النطق بالضاد.

أما بعد: فإن البلاغة العربية نشأت في العصر الجاهلي و شقّت طريقها نحو النمو و الازدهار إلى أن أصبحت علما له قواعده و ضوابطه، و أحكامه و قوانينه. و لاشك أن القرآن الكريم قد أثر تأثيرا بالغا في نشأة البلاغة؛ فقد عكف العلماء على دراسته و البحث في سرّ إعجازه حيث قال أبو هلال العسكري « إن أحقّ العلوم بالتعلم هو علم البلاغة و معرفة الفصاحة، و الإنسان إذا أغفل علم البلاغة و أحلّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن، من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف و براعة التركيب، و ما شحنه به من الإيجاز البديع ».

لقد ساهمت طوائف متعددة في صنع تاريخ البلاغة، فكان لكل طائفة اتجاهها المعين، و مشربها الخاص، و لم تكن هذه الاتجاهات متضاربة متنافرة، بقدر ما كانت متضافرة متآخية، تسير في قنوات مختلفة و لكنها في النهاية تصب في مجرى واحد، هو محاولة وضع القواعد البلاغية على أسس واضحة، نتهدي بها في الحكم على النص الأدبي.

من هذه الطوائف المتعددة أذكر طائفة النحاة التي لعبت دورا هاما في تطوير الدرس البلاغي، و من هؤلاء النحاة: محمد بن يزيد النحوي الأزدي المعروف بالمبرد (285هـ).

كان المبرّد واحدا من أبرز أئمة البصرة، فهو يمتلك مكانة عظيمة في نفوس معاصريه حيث تأثر بكتاب سيبويه تأثرا عظيما جعله يعدّ نفسه الأمين على النحو البصري بعده.

و رغم اهتمامه بالنحو إلاّ أنه أفاد البلاغة العربية و البيان العربي بالخصوص عندما درس في كتابه الكامل فن التشبيه.

إنّ المبرّد لم يكن أوّل من تحدث عن التشبيه بل عرف قبله عند أبي عبيدة و الفراء، و الجاحظ، و ابن قتيبة، لكن أحدا منهم لم يقسمه تلك التقسيمات التي قسمها المبرّد. و لم يخصّص له بابا كما فعل المبرّد.

إنّ المبرّد قدّم لنا مجهودا جبّارا أفاد به البلاغيين بعده، يتمثل في جمع النماذج الشعرية التي تحوي التشبيه في الشعر الجاهلي و الإسلامي و الأموي و حتى العبّاسي المحدث بالنسبة له.

و الجهد الثاني يتمثل في تقسيم هذه النماذج من التشبيهات إلى أقسام نعتها بمجموعة من الصفات اعتمد فيها على ذوقه الخاص لا غير. منها تشبيهات مصيبة و أخرى مليحة و ثالثة حسنة و غيرها كثير.

و الجهد الثالث نلاحظه عندما نتتبّع شرحه للتشبيهات الموجودة في القرآن الكريم، حتى إنه نعت بعض تشبيهات القرآن الكريم بمثل ما نعت الأشعار.

إنّ رغبتني في تسليط الضوء على جانب آخر من أبحاث هذا العالم اللّغوي النحوي هي التي دفعتني إلى القيام بهذا البحث المتواضع من أجل إبراز مجهوده البلاغي و إعطائه بعض حقّه إذا استطعت.

و الطريقة التي اتبعتها في دراستي هي ذكر مثالين أو ثلاث أمثلة على الأكثر لكل نوع من الأنواع التي ذكرها المبرّد. و لم أتناول كل الأمثلة الواردة في الكامل لكثرتها.

أما الصعوبات التي اعترضتني في هذا البحث فهي أن الكتب التي تناولت التشبيه عند المبرد لم تعلق سبب تسمية المبرد لتلك الأقسام بتلك النعوت و لم تشرح الشواهد التي قدمها لكل قسم.

و من أهم المؤلفات التي ساعدتني على القيام بهذا البحث: التفكير البلاغي عند العرب أسسه و تطوره إلى القرن السادس لحمادي صمود، و أثر القرآن في تطور النقد الأدبي لمحمد زغلول سلام ، و الصورة الفنيّة في التراث النقدي و البلاغي لجابر عصفور، أثر النحاة في البحث البلاغي لعبد القادر حسين، و غيرهم.

أمّا المنهج الذي اخترته في دراستي فهو المنهج الوصفي لأنني بصدد دراسة ظاهرة بيانية شاع استعمالها عند الشعراء و الأدباء و نالت الاهتمام الوافر منهم. كما استعنت بالمنهج التاريخي و ذلك عند تناولي لحياة المبرد و عند تتبعي لتاريخ التشبيه قبله.

و لقد قسّمت موضوع بحثي إلى مدخل و ثلاثة فصول؛ ففي المدخل تعرضت لشخصية المبرد: حياته، و سبب تلقيبه بالمبرد، و صفاته، و تلامذته، و ثقافته، و مكانته العلمية، و مؤلفاته. و كذلك جهوده النحوية و البلاغية.

و بما أن فنّ التشبيه تناوله العديد من النحويين و اللغويين قبل المبرد فإنني في الفصل الأول من بحثي ألقيت الضوء على التشبيه عند السابقين للمبرد كسيبويه، و أبي عبيدة، و الفراء، و الجاحظ، و ابن قتيبة.

و تطرقت في الفصل الثاني إلى التشبيه عند المبرد بدراسة كل الأقسام التي تناولها في مؤلفه "الكامل".

أما في الفصل الثالث فحاولت إظهار أثر المبرد في المتأخرين و خصصت بالذكر: ابن المعتز و قدامة بن جعفر و عبد القاهر الجرجاني و الخطيب القزويني.

و ختمت بحشي بخاتمة تضمنتها مجموعة من الملاحظات و النتائج التي توصلت إليها.

و لا يسعني في الأخير إلا أن أسأل الله أن يتقبّل منّي هذا العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم فإن أصبت فمنه عزّ و جلّ و إن أخطأت فمن نفسي، و الكمال لله عزّ و جلّ و لكل شيء ما سواه نقصان و قد صدق الشاعر "أبو البقاء الرندي" حين قال:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانٌ *** فَلَا يُغَرُّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانٌ

بن حدو وهبة

تلمسان في: 3 جمادى الأول 1427هـ

الموافق ل 30 ماي 2006م.

المدخل

حياة المبرّد و جهوده
العلمية و البلاغية

المدخل:

أولا : التعريف بالمبرّد

1-حياته

2- سبب تلقيبه بالمبرّد

3-صفاته

4- تلامذته

5- ثقافته

6- مكانته العلمية

7- مؤلفاته

ثانيا : جهوده النحوية و البلاغية

1-جهوده النحوية

2-جهوده البلاغية

المبحث الأول : علم المعاني

1-أضرب الخبر

2-الاستفهام

3-الالتفات

4- التعقيد اللفظي

المبحث الثاني : علم البديع و البيان

1 -التشبيه

2-الكناية

3-صور من المجاز

4-الاستعارة

3-مساهماته النقدية

أولاً: التعريف بالمبرد:

1- حياته:

يزخر تاريخنا الإسلامي بشخصيات أثرت مكتبتنا العربية و بذلت جهداً خصباً في وضع أصول النحو العربي و قواعده و جمع تراثنا اللغوي، و من بينها شخصية « محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان* بن سليم** بن سعد بن عبد الله بن زيد بن مالك ابن الحارث بن عامر بن عبد الله بن بلال بن عوف بن أسلم بن ثماله*** بن أحجن بن كعب بن الحارث ابن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد⁴، و يقال الأزدي الغوث¹»، و يقال أيضاً: « الشمالي الأزدي البصري المعروف بالمبرد النحوي²». و قيل أن أصله ليس ثمالياً بل ادعاه حيث صنع أبياتاً على لسان "عبد الصمد بن المعدل" يثبت بها نسبه³ و هي⁴:

سَأَلْنَا عَنْ ثُمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ *** فَقَالَ الْقَائِلُونَ وَ مَنْ ثُمَالَهُ*

*- في طبقات النحويين و اللغويين للزبيدي الأندلسي- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- دار المعرفة- ط1- 1979م: 101- و في إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- دار الفكر العربي القاهرة- مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت- ط1- 1406هـ- 1976م: 240/3- بن حسان - أما في معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب- لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي- ط1- د.ت: 137- بن غسان.

** - في إنباه الرواة على أنباه النحاة: 241/3 و معجم الأدباء: 137/7- بن سليمان.

*** - في إنباه الرواة على أنباه النحاة: 241 و وفيات الأعيان و أنباء الزمان لابن خلكان- دار صادر- بيروت- ط1-

4: 314/1970 و معجم الأدباء و طبقات النحويين و اللغويين: 101 و هو ثماله.
* 4 - في إنباه الرواة على أنباه النحاة: 241 و وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان: 314/4 و معجم الأدباء: 137/7: بن الأسد.

1- الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم- حققه و قدم له مصطفى الشويبي- الدار التونسية للنشر- ط1- 1406هـ/ 1985م: 266/265

2- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان- لابن خلكان: 314/4.

3- إنباه الرواة على أنباه النحاة: 253/3.

4- وفيات الأعيان: 320/4.

*- الثمالي: بضمّ الثاء المثلثة و فتح الميم و بعد الألف لام هذه النسبة إلى ثماله قال المبرد في كتاب الاشتقاق: إنما سميت ثماله لأنهم شهدوا حرباً فني فيها أكثرهم، فقال الناس ما بقي منهم إلا ثماله، و الثمالة: البقية اليسيرة. ينظر: وفيات الأعيان: 320/4.

فَقُلْتُ: مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ مِنْهُمْ *** فَقَالُوا: زِدْنَا بِهِمْ جَهَالَهٗ

فَقَالَ لِي الْمُبَرَّدُ : خِلْ قَوْمِي *** فَقَوْمِي مَعْشَرُ فِيهِمْ نَدَالَهٗ

ولد المبرد في يوم الاثنين « غداة عيد الأضحى سنة عشر و مائتين »⁵ و كان أبوه من «السورجيين بالبصرة ممن يكسح الأرضين، و كان يقال له: حيّان الشورجيّ، و انتمى إلى اليمن، و لذلك تزوّج المبرد ابنة الحفصي المغنيّ، و الحفصي شريف من اليمنية».⁶

أمّا فيما يخصّ نشأته و صباه فلم تذكر المصادر عنها شيئاً سوى أنه « كان جميلاً لا سيما في صباه »⁷، و أنّه أكبّ منذ صغره على التزود من اللّغة على أيدي أعلام عصره من البصريين و كان شغوفاً بالنحو و الصرف حيث « قرأ كتاب سيبويه على الجرمي (ت 225هـ) ثم توفي الجرمي فابتدأ قراءته على المازني (ت 249هـ) ».⁸

قال سهل بن أبي سهل البهزيّ و ابراهيم بن محمّد المسمعي: « رأينا محمّداً بن يزيد، و هو حديث السنّ، متصدّراً في حلقة أبي عثمان المازني يقرأ عليه كتاب سيبويه، و أبو عثمان في تلك الحلقة كأحد من فيها ».⁹

و قد أخذ العلم بالإضافة إليهما على يد نخبة من علماء عصره منهم:

- الجاحظ (ت 225هـ): ظهرت تلمذته على يد الجاحظ فيما رواه عنه في كتابه

الكامل حيث أنه كنّاه بالليثي تارة و باسمه الحقيقي تارة أخرى، من أمثلة ذلك، قال:

5- معجم الأنباء: 137/7.

6- الفهرست: 266.

7- بغية الوعاة في طبقات اللّغويين و النحاة- للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي- تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم- المكتبة العصرية- صيدا - بيروت- ط1- د.ت: 269/1.

8- إنباه الرواة على أنباه النحاة: 242.

9-طبقات النحويين و اللّغويين: 101.

« قال أبو العباس: قال الليثي (هو الجاحظ) »¹⁰. و قال في أخرى: « قال أبو العباس حدّثني عمرو بن بحر الجاحظ »¹¹.

-الزيادي (ت 249هـ): هو أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان، و روى عنه المبرد في كتابه الكامل حيث قال: « و حدّثني الزيادي إبراهيم بن سفيان بن سليمان بن أبي بكر بن عبد الرحمان بن زياد »¹².

-الرياشي: أبو الفضل العباس بن الفرّج (ت 257هـ): روى عنه المبرد إذ قال: « و قرأت على أبي الفضل العباس بن الفرّج الرياشي »¹³. انتقل المبرد من البصرة إلى "سرّ من رأى سنة 246هـ"¹⁴؛ و لذلك قصة رواها أحمد بن حرب صاحب الطيلسان عن المتوكل الذي قرأ يوما و بحضرته الفتح بن خاقان ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْكُمْ﴾¹⁵ فقال له الفتح بن خاقان: يا سيدي ﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْكُمْ﴾ بالكسر: و وقعت المشاجرة فتبايعا على عشرة آلاف دينار، و تحاكما إلى يزيد بن محمد المهلبّي - و كان صديقا للمبرد - فلما وقف يزيد على ذلك خاف أن يسقط أحدهما، فقال: و الله ما أعرف الفرق بينهما، و ما رأيت أعجب من أن يكون باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم، فقال المتوكل: فليس هاهنا من يسأل عن هذا؟، فقال: ما أعرف أحدا يتقدم فتى بالبصرة يعرف بالمبرد، فقال: ينبغي أن يشخص، فنفذ الكتاب إلى محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان الهاشمي؛ بأن يشخصه مكرّما.

فحدّثني محمد بن يزيد قال: وردت سرّ من رأى، فأدخلت على الفتح بن خاقان فقال لي: يا بصريّ، كيف تقرأ هذا الحرف: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْكُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ بالكسر، أو ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْكُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أو بالفتح؟ فقلت: ﴿إِنَّهَا﴾ بالكسر، هذا

¹⁰- الكامل في اللغة و الأدب للعلامة أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي المتوفي 285هـ- مؤسسة المعارف- بيروت ط1- د.ت: 294/1.

¹¹-نفسه: 66/2.

¹²-نفسه: 201/1- 342.

¹³-نفسه: 85/1- 91.

¹⁴- ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة: 244/3.

¹⁵-سورة الأنعام: 109.

المختار، و ذلك أن أول الآية: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾؛ ثم قال تبارك و تعالى: يا محمد ﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَأُؤْمِنُونَ﴾، باستئناف جواب الكلام المتقدم، قال: صدقت.

و ركب إلى دار أمير المؤمنين، فعرفه بقدومي، و طالبه بدفع ما تخاطرا عليه، و تبايعا فيه؛ فأمر بإحضاري فحضرت، فلما وقعت عين المتوكل عليّ قال: يا بصريّ، كيف تقرأ هذه الآية: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بالكسر، أو ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بالفتح؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أكثر الناس يقرؤها بالفتح، فضحك و ضرب برجله اليسرى و قال: أحضر يا فتح المال، فقال: إنه و الله يا سيدي قال لي خلاف ما قال لك، فقال: دعني من هذا، أحضر المال.

و أخرجت فلم أصل إلى الموضع الذي كنت أنزلته؛ حتى أتني رسل الفتح، فأتيته فقال لي: يا بصريّ، أول ما ابتدأنا به الكذب! فقلت: ما كذبت، فقال: كيف و قد قلت لأمر المؤمنين إنّ الصواب: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بالفتح؟ فقلت: أيها الوزير؛ لم أقل هكذا، و إنما قلت: أكثر الناس يقرؤها بالفتح، و أكثرهم على خطأ، و إنّما تخلّصت من اللأئمة، و هو أمير المؤمنين؛ فقال لي: أحسنت. قال أبو عباس: فما رأيت أكرم كرمًا، و لا أرطب بالخير لسانًا من الفتح¹⁶.

و كان المبرّد مقدّمًا في الدّول عند الوزراء و الأكابر، و لما مات الفتح بن خاقان كتب محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحارث يحث في إشخاص محمد بن يزيد المبرّد فلم يزل مقيما معه، و سبّب له أرزاقا على مصر حسب ما كانت أرزاق الندامي تجري عليهم من هناك¹⁷.

¹⁶- طبقات النحويين و اللغويين: 102-103.
¹⁷- ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة: 247/3.

و بقي في بغداد حتى توفي فيها و ذلك في « شوال و قيل في ذي القعدة سنة 285هـ في خلافة المعتضد و صلى عليه أبو محمد يوسف بن يعقوب القاضي و دفن في دار في مقابر باب الكوفة ».¹⁸

و قد رثاه ابن العلاف بأبيات سائرة، و كان ابن الجواليقي كثيرا ما ينشدها،
و هي¹⁹:

ذَهَبَ الْمِرْدُ وَ انْقَضَتْ أَيَّامُهُ *** وَ لَيْذَهَبٍ إِثْرَ الْمِرْدِ ثَعْلَبُ
بَيْتٌ مِنَ الْآدَابِ أَصْبَحَ نِصْفُهُ *** خَرِبًا وَ بَاقِي بَيْتِهَا فَسَيَخْرُبُ
فَابْكُوا لِمَا سَلَبَ الزَّمَانُ وَ وَطَّنُوا *** لِلدَّهْرِ أَنْفُسَكُمْ عَلَى مَا يَسْلَبُ
وَ تَزَوَّدُوا مِنْ ثَعْلَبٍ، فَبِكَاسٍ مَا *** شَرِبَ الْمِرْدُ عَنْ قَرِيبٍ يَشْرَبُ
وَ أَرَى لَكُمْ أَنْ تَكْتُبُوا أَنْفَاسَهُ *** إِنْ كَانَتْ الْأَنْفَاسُ مِمَّا يُكْتَبُ

عاصر المبرد أبا العباس أحمد بن يحيى الملقب بثعلب صاحب كتاب "الفصيح" الذي كان من أعلام الكوفيين، و كان يقع بينهما ما يقع بين المتعاصرين من اجتماعات و مناظرات.²⁰

و يروى أن المبرد كان « يحب الاجتماع في المناظرة بثعلب و الاستكثار منه، و كان ثعلب يكره ذلك و يمتنع منه، و حكى أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الفقيه الموصلية و كان صديقهما، قال: قلت لأبي عبد الله الدينوري ختن ثعلب: لم يأت ثعلب الاجتماع بالمبرد؟ فقال: لأن المبرد حسن العبارة حلو الإشارة فصيح اللسان ظاهر

¹⁸- معجم الأدباء: 142/7.

¹⁹- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان: 319/4.

²⁰- نفسه: 314/4.

البيان، و ثعلب مذهبه مذهب المعلمين، فإذا اجتمعوا في محفل حكم للمبرّد على الظاهر إلى أن يعرف الباطن»²¹. لذا كان أكثر أهل التحصيل يفضلونه.²²
و قال بعضهم فيهما²³:

أَيَا طَالِبِ الْعِلْمِ لَا تَجْهَلَنَّ *** وَ عُدْ بِالْمَبْرَدِ أَوْ تَغْلِبِ
تَجِدْ عِنْدَ هَذَيْنِ عِلْمَ الْوَرَى *** فَلَا تَكُ كَالْجَمَلِ الْأَجْرَبِ
عُلُومَ الْخَلَائِقِ مَقْرُونَةً *** يَهْدَيْنِ فِي الشَّرْقِ وَ الْمَغْرِبِ

2- سبب تلقيبه "بالمبرّد":

اختلفت المصادر حول سبب تلقيب أبي العبّاس بالمبرّد؛ فقد ذكر الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي « في كتاب "الألقاب" أنه قال: سئل المبرّد: لم لقبت بهذا اللقب؟ فقال: كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبني للمنادمة و المذاكرة فكرهت الذهاب إليه، فدخلت إلى أبي حاتم السجستاني، فجاء رسول الوالي يطلبني، فقال لي أبو حاتم: أدخل في هذا، يعني غلاف مزملّة فارغا، فدخلت فيه و غطّيت رأسه، ثم خرج إلى الرسول و قال: ليس هو عندي، فقال: أخبرت أنه دخل إليك، فقال: أدخل الدار و فتّشها، فدخل فطاف كل موضع في الدار و لم يفطن لغلاف المزملّة، ثم خرج فجعل أبو حاتم يصقّق و ينادي على المزملّة: المبرّد المبرّد، و تسامع الناس بذلك فلهجوا به»²⁴.
-و قيل إنه لقب بالمبرّد لأنّه لما صنّف المازني كتاب الألف و اللّام سأله عن دقيقه و عويصه فأجابه بأحسن جواب فقال له المازني قم فأنت المبرّد بكسر الراء أي المثبت للحق فحرّفه الكوفيون و فتحوا الراء.²⁵

²¹- معجم الأدباء: 141/7.
²²- ينظر: بغية الوعاة: 269/1.
²³- معجم الأدباء: 139/7.
²⁴- وفيات الأعيان: 321/4.
²⁵- ينظر: معجم الأدباء: 137/7.

و لقبه هذا كان سببا في التندر عليه أحيانا، يقول المبرّد:

« ما تنادر أحد [عليّ] ما تنادر به سذاب الورّاق، فإني اجتزت يوما به و هو قاعد بباب داره، فقال لي: إلى أين؟ و لاطفني و عرض عليّ القرى، فقلت له: ما عندك؟! فقال: عندي أنت و عليه أنا، يشير إلى اللحم المبرّد بالسذاب».²⁶

3- صفاته:

وصف أبو بكر بن أبي الأزهر -تلميذ المبرّد- أستاذه فقال: « كان أبو العباس محمد بن يزيد من العلم، و غزارة الأدب، و كثرة الحفظ و حسن الإشارة، و فصاحة اللسان، و براعة البيان و ملوكية المجالسة و كرم العشرة، و بلاغة المكاتبة، و حلاوة المخاطبة، و جودة الحظّ، و صحّة القريحة، و قرب الإفهام، و وضوح الشرح، و عذوبة المنطق على ما ليس عليه أحد ممن تقدّمه أو تأخّر عنه ».²⁷

و كان المبرّد حسن المحاضرة، فصيحاً، بليغاً، مليح الأخبار، ثقة فيما يرويه، كثير النوادر فيه ظرافة و لباقة²⁸. و كان « كثير الأمالي »²⁹ و ممّا أملاه:

أن المنصور أبا جعفر ولّى رجلاً على الإجراء على العميان و الأيتام و القواعد من النساء اللواتي لا أزواج لهنّ، « فدخل على هذا المتولي بعض المتخلفين و معه ولده، فقال له: إن رأيت أصلحك الله أن تثبت اسمي مع القواعد، فقال له المتولي: القواعد نساء فكيف أثبتك فيهنّ؟ فقال: ففي العميان؟ فقال: أمّا هذا فنعم، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾³⁰ فقال: و تثبت ولدي في الأيتام، فقال: و هذا أفعله أيضاً، فإنه من تكن أنت أباه فهو يتيماً، فانصرف عنه و قد أثبتته في العميان و ولده في الأيتام ».³¹

²⁶- وفيات الأعيان: 316/4.

²⁷- إنباه الرواة: 242/3.

²⁸- ينظر: معجم الأدباء: 137/7.

²⁹- وفيات الأعيان: 314/4.

³⁰-سورة الحج: 46.

³¹- وفيات الأعيان: 315/4.

و تدلّ كتابات المبرّد المختلفة على أنّه كان دقيق الحسّ اللّغوي دقّة شديدة، فأودع كتبه و مصنفاته كثيرا من الملاحظات اللّغوية و التعبيرية التي تدلّ على رهافة حسّه.

و روي عنه أنّه كان شاعرا، فبالإضافة إلى رياسته و تفرّده بمذهب أصحابه، و إربائه عليهم بفطنته و صحّة قريحته كان يقول الشعر، و كان لا ينتحل ذلك و لا يعتزّى إليه، و لا يرسم نفسه به، بل كان يقول شعره جيّد كثير لا يدّعيه و لا يفخر به، فمنه قوله في « عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحارث، و قد ورد عليه كتابه و في درجة التسبب بأرزاقه إلى مصر، فأجاب عن الكتاب بأبيات قالها على البديهة:

بِنَفْسِي أَخْبَرْتُ شَدَدْتُ بِهِ أَزْرِي *** فَأَلْفَيْتُهُ حُرًّا عَلَى الْعُسْرِ وَ الْيُسْرِ

أَغَيْبْتُ فَلِي مِنْهُ ثَنَاءً وَ مِدْحَةً *** وَ أَحْضَرْتُ مِنْهُ أَحْسَنَ الْقَوْلِ وَ الْبِشْرِ

وَ مَا طَاهَرْتُ إِلَّا جَمَالَ لِصَحْبِهِ *** وَ نَاصِرُ عَافِيهِ عَلَى كَلْبِ الدَّهْرِ

تَفَرَّدْتُ يَا خَيْرَ الْوَرَى فَكَفَيْتَنِي *** مُطَالَبَةً شَنْعَاءَ ضَاقَ لَهُ مَا صَدْرِي»³²

و لكن رغم كل تلك الصفات التي ذكرت فيه إلا أنه كان بخيلا بل كان من أبخل الناس بكلّ شيء، حيث كان يقول: «إنه لا يكون نحوئي جوادا؛ فقليل له: و كيف ذلك؟ قال: ترونه يفرّق بين الهمزتين، و لا يفرّق بين سبب الغنى و الفقر! يريد أن الإمساك سبب من أسباب الغنى، و العطاء سبب من أسباب الفقر».³³

و قال أيضا: « ما وزنت شيئا بالدرهم إلا ورجح الدرهم في نفسي».³⁴

³² - إنباه الرواة: 247/3.

³³ - طبقات النحويين و اللغويين: 106..

³⁴ - إنباه الرواة: 249/3.

4- تلامذته:

تلقى العلم على يد المبرّد جماعة من العلماء المشهورين، و منهم:

- أبو بكر المعروف بمبرمان النحوي (ت 326هـ): « هو محمد بن علي بن اسماعيل العسكري، أخذ النحو عن المبرّد و عن أبي إسحاق ابراهيم الزجاج و أكثر عنه...³⁵ و كان إماما في النحو قيما به ».

- الأخفش الصغير (ت 315هـ): « هو عليّ بن سليمان بن الفضل الأخفش... مات في شعبان سنة خمس عشرة و ثلاثمائة... قال: أنشدنا أبو العباس المبرّد:

لَا تَكْرَهْنِ لِقَبًا شُهِرَتْ بِهِ *** فَلَرَبَّ مَحْظُوظٍ مِّنَ اللَّقَبِ

قَدْ كَانَ لُقْبَ مَرَّةً رَجُلٌ *** بِالْوَائِلِيِّ فَعُدَّ فِي الْعَرَبِ

و كان الأخفش قد قرأ على ثعلب و المبرّد و أبي العيّن و اليزيدي.

و حدّث الأخفش قال: استهدى ابراهيم بن المدبر المبرّد، جليسا يجمع إلى تأديب ولده الاستماع بإيناسه و مفاكته فندبني إليه».³⁶

- ابن درستويه (ت 347هـ): « أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان

الفارسي الفسوي النحوي؛ كان عالما فاضلا أخذ فن الأدب عن ابن قتيبة و عن المبرّد و غيرهما ببغداد... و تصانيفه في غاية الجودة و الإتقان ».³⁷

- ابن السّراج (ت 316هـ): « محمد بن السّري بن سهل، أبو بكر السّراج

البغدادي النحوي. قال المرزباني: كان أحدث أصحاب أبي العباس المبرّد مع ذكاء و فطنة، قرأ عليه كتاب سيبويه... و يقال: مازال النحو مجنونا حتى عقله ابن السّراج بأصوله؛ و كان

³⁵ - معجم الأدباء لياقوت الحموي: المجلد التاسع: 254/18- دار الفكر للطباعة و النشر- ط3-

1400هـ/1980م.

³⁶ - نفسه: المجلد السابع- ج246-249-255.

³⁷ - وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان: 44/3.

أحد العلماء المذكورين و أئمة النحو المشهورين؛ و إليه انتهت الرئاسة في النحو بعد المبرّد³⁸.

-ابن الزّجاج (ت311هـ): « ابراهيم بن السّريّ بن سهل، أبو إسحاق النحويّ قال

الخطيب: كان من أهل الدين و الفضل، حسن الاعتقاد، جميل المذهب، و له مصنّفات حسان في الأدب، مات في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة و ثلاثمائة³⁹ ».

قال أبو محمد عبد الله بن درستويه النحوي: « حدّثني الزّجاج قال: كنت أحرط الزّجاج فاشتبهت النحو، فلزمت المبرّد لتعلّمه، و كان لا يعلم مجّانا و لا يعلم بأجرة إلا على قدرها، فقال لي أيّ شيء صناعتك؟ قلت: أحرط الزّجاج، و كسبي كل يوم درهم و دانقان أو درهم و نصف، و أريد أن تبالغ في تعليمي، و أنا أعطيك كلّ يوم درهما، و أشرط لك أن أعطيك إياه أبدا إلى أن يفرّق الموت بيننا، استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه، قال: فلزمته و كنت أخدمه في أموره مع ذلك و أعطيه الدرهم، فينصّحني في العلم حتى استقلت، فجاء كتاب بعض بني مارقة من الصّراة يلتمسون معلّما نحويّا لأولادهم، فقلت له أسمني لهم فأسماني، فخرجت فكنت أعلمهم و أنفذ إليه في كلّ شهر ثلاثين درهما... و كنت أعطي المبرّد ذلك الدّهرم في كل يوم إلى أن مات، و لا أخليه من التفقد بحسب طاقتي⁴⁰ ».

و روى القفطي قصّة أخرى عن اتصال الزّجاج بالمبرّد قال: لما قتل المتوكّل بسرّ من رأى دخل المبرّد إلى بغداد، فقدم بلدا لا عهد له بأهله، فاختل و أدركته الحاجة، فتوخّى شهود صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره، و سأله أن يفاتحه السّؤال ليتسبب له القول، فلم يكن عند من حضره علم، فلما رأى ذلك رفع صوته و طفق يفسّر و يوهّم بذلك أنه سئل، فصارت حوله حلقة عظيمة...

³⁸ - معجم الأدباء: المجلد التاسع - 198-197/18.

³⁹ - نفسه: المجلد الأول: 130/1.

⁴⁰ - نفسه: 130/1.

فلما نظر ثعلب إلى من حول أبي العباس المبرّد أمر ابراهيم بن السريّ الرّجّاج و ابن الخيّاط بالنهوض، و قال لهما: فضّا حلقة هذا الرّجل، فنهض معهما من حضر من أصحابه فلما صاروا بين يديه قال له ابراهيم بن السريّ: أتأذن -أعزّك الله- في المفاتشة؟ فقال له المبرّد: سلّ عمّا أحببت، فسأله عن مسألة فأجابه عنها بجواب أقنعه.

فنظر الرّجّاج في وجوه أصحابه متعجّبا من تجويد أبي العباس للجواب، فقال: نعم؛ [قال]: فإن قال قائل في جوابنا هذا، ما أنت راجع إليه؟ و جعل أبو العباس يوهن جواب المسألة و يفسده و يعتل فيها. فبقي ابراهيم بن السريّ سادرا يحيرّ جوابا، ثم قال: إن رأى الشيخ-أعزّه الله- أن يقول في ذلك. فقال المبرّد: فإن القول على نحو كذا؛ فصحّ الجواب الأول و أوهن الاعتراض.

فبقي الرّجّاج مبهورا، ثم قال في نفسه: قد يجوز أنه كان حافظا لهذه المسألة، مستعدّا للقول فيها؛ فسأله مسألة ثانية، ففعل المبرّد فيها ما فعله [في] الأولى؛ حتى سأله أربع عشرة مسألة، و هو يجب عن كل واحدة منها بما فعله في المسألة الأولى. فلما رأى ذلك الرّجّاج قال لأصحابه: عودوا إلى الشيخ، فلست مفارقا هذا الرجل و لا بد لي من ملازمته و الأخذ عنه. فعاتبه أصحابه و قالوا: تأخذ عن مجهول لا يعرف اسمه، و تدع من شهر اسمه و علمه، و انتشر في الآفاق ذكره! فقال: لست أقول بالذكر و الخمول؛ و لكنّي أقول بالعلم و العمل. قال: فلزم أبا العباس، فسأله عن حاله فأخبره برغبته في النظر، و أنه قد حبس نفسه على ذلك؛ إلا ما يشغله من صناعة الرّجّاج في كل خمسة أيام من الشهر؛ فيتقوّت بذلك الشهر كلّ. ثم أجرى عليه في الشهر ثلاثين درهما.⁴¹

⁴¹- ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة: 250.

5- ثقافته:

إنّ المبرّد من جيل ابن قتيبة (ت 276 هـ) و تلميذ للجاحظ (ت 225 هـ) روى عنه في عدّة مواطن من كتبه، و قد صرّح بروايته عنه في مواطن عديدة من "الكامل" إلا أن هذه التلمذة و ذلك التزامن لما يتولد عنهما تجانس في الاهتمام و المشارب، لئن كانت ثقافة كل من الجاحظ و ابن قتيبة تتسم بالشمول و النظر الموسوعي، مع فارق في الدرجة و النوع، مسخرة لأغراض عقائدية أملاها انتماءهما المذهبي، فإن ثقافة المبرّد غلب عليها الطابع اللغوي بالدرجة الأولى و الطابع الأدبي بالدرجة الثانية فالرجل شيخ من شيوخ النحو و العربية و رأس الطبقة السادسة من النحاة .

و المتصفّح لقائمة المصادر المنسوبة إليه يرى بوضوح غلبة هذين المنزعين - اللغوي و الأدبي - برغم أنه لم يتخلّف عن المساهمة بالتأليف في مشاغل عصره إلا أنه إما باشر ذلك من زاوية لغوية... أو أن مساهمته لا تعدو الرسالة المفردة في الموضوع.⁴²

6- مكانته العلمية:

احتلّ المبرّد مكانة مرموقة بين معاصريه و شهد له من تأخّر عنه بعلمه، قال فيه تلميذه نفطويه: « ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد منه ».⁴³

و قال اليوسفيّ الكاتب - كاتب المأمون - : « كنت يوما عند أبي حاتم السجستاني إذ أتاه شاب من أهل نيسابور فقال: يا أبا حاتم إنّي قدمت بلدكم، و هو بلد العلم و العلماء، و أنت شيخ هذه المدينة، و قد أحببت أن أقرأ عليك "كتاب سيبويه"، فقال: "الدين النصيحة" إن أردت أن تنتفع بما تقرؤه فاقراً على هذا الغلام، محمد بن يزيد، فتعجّب ».⁴⁴

⁴² - ينظر: التفكير البلاغي عند العرب- أسسه و تطوره إلى القرن السادس- حمادي صمود- منشورات الجامعة التونسية- طبعة بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ط1-1981: 242.

⁴³ - بغية الوعاة: 269/1.

⁴⁴ - طبقات النحويين و البلاغيين: 101.

و قال اسماعيل بن إسحاق القاضي: « لم ير أبو العباس مثل نفسه ممن كان قرينه
و لا يرى بعده مثله». ⁴⁵

قال السيرافي: « سمعت أبا بكر بن مجاهد يقول: ما رأيت أحسن جوابا من المبرّد
في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم و لقد فاتني منه علم كثير لقضاء ذمام
ثعلب». ⁴⁶

و قال أيضا: « انتهى علم النحو بعد طبقة الجرمي و المازني إلى أبي العباس بن يزيد
الأزدي ». ⁴⁷

و قال أبو سعيد — رحمه الله —: « و قد نظر في كتاب سيبويه في عصره جماعة
و لم يكن لهم كنباهته، يعني المبرّد ». ⁴⁸

و ذكره ابن جني فقال: « يعد جيلا في العلم، و إليه أفضت مقالات أصحابنا
و هو الذي نقلها و قررها و أجرى الفروع و العلل و المقاييس عليها ». ⁴⁹

أما الأزهري فقد قال عنه في مقدمة معجمه تهذيب اللغة: « كان أعلم الناس
بمذاهب البصريين في النحو و مقاييسه ». ⁵⁰

و وصفه "الخطيب البغدادي" بأنه « شيخ أهل النحو، و حافظ علم العربية...
و كان عالما فاضلا موثوقا به في الرواية، حسن المحاضرة، مليح الأخبار، كثير
النوادر ». ⁵¹

⁴⁵ - أنباه الرواة: 242/3.

⁴⁶ - معجم الأدباء: 137/7.

⁴⁷ - أثر النحاة في البحث البلاغي لعبد القادر حسين- دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع- القاهرة- ط1- د.ت: 201.

⁴⁸ - الفهرست: 269.

⁴⁹ - المدارس النحوية- شوقي ضيف- دار المعارف بمصر- ط1- د.ت: 124.

⁵⁰ - تهذيب اللغة- أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر- الأزهري الهروي المتوفي 370هـ- تحقيق أحمد عبد الرحمن

مخيمر- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- 2004م- 1425هـ: 34/1.

⁵¹ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام- للخطيب البغدادي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- د.ط- د.ت: 380/3.

و قال البحتري في مدح المبرد⁵²:

مَا نَالَ مَا نَالَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ *** إِلَّا يُبْمَنُ مُحَمَّدُ بْنُ يُزِيدٍ

وَ بُنُوا ثَمَالَةً أَنْجَمَ مَسْعُودَةٌ *** فَعَلَيْكَ ضَوْءُ الْكَوْكَبِ الْمَسْعُودِ

7- مؤلفاته:

إن علم المبرد الدقيق بالشعر، و براعته في النحو و اللغة، كانت حصيلته مؤلفات تطرق فيها إلى ما تطرق إليه النحاة قبله، و أضاف إليها ما استفاده من النقاد و البلاغيين و هذه المؤلفات هي: « كتاب الكامل - كتاب الروضة - كتاب المقتضب - كتاب الاشتقاق - كتاب الأنواء و الأزمنة - كتاب القوافي - كتاب الخطّ و الهجاء - كتاب المدخل إلى سيبويه - كتاب المقصور و الممدود - كتاب المذكر و المؤنث - كتاب معاني القرآن و يعرف بالكتاب التّام - كتاب احتجاج القراءة - كتاب الرّسالة الكاملة - كتاب الرّد على سيبويه - كتاب قواعد الشعر - كتاب إعراب القرآن - كتاب الحثّ على الأدب و الصّدق - كتاب قحطان و عدنان - كتاب الزيادة المنتزعة من [كتاب] سيبويه - كتاب المدخل في النحو - كتاب شرح شواهد كتاب سيبويه - كتاب ضرورة الشعر - كتاب أدب الجليس - كتاب الحروف في معاني القرآن إلى [سورة] طه - كتاب معاني صفات الله - جلّ و علا - كتاب الممدوح و المقابح - كتاب الرّياض المؤنّقة - كتاب أسماء الدّواهي عند العرب - كتاب الإعراب - كتاب الجامع، لم يتمّه - كتاب التعازي - كتاب الوشي - كتاب فقر كتاب سيبويه - كتاب النّاطق - كتاب العروض - كتاب فقر كتاب الأوسط للأخفش - كتاب البلاغة - كتاب شرح كلام العرب و تلخيص ألفاظها و مزاجه كلامها و تقريب معانيها - كتاب ما اتفقت ألفاظه و اختلفت معانيه في

⁵² - الأبيات غير موجودة في الديوان: ينظر: المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد - عالم الكتب بيروت - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ط1 - د.ت: 25/1.

القرآن- كتاب الفاضل و المفضل- كتاب طبقات النحويين البصريين و أخبارهم- كتاب العبارة عن أسماء الله تعالى- كتاب الحروف- كتاب التصريف».⁵³

و أهمّ هذه المؤلفات كتابه "الكامل"، الذي عرّفه صاحبه في مقدمته فقال: « هذا كتاب ألّفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور و شعر مرصوف و مثل سائر و موعظة بالغة و اختيار من خطبة شريفة و رسالة بليغة و النية فيه أن نفسّر كلّ ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق و أن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً وافياً، شافياً حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً و عن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً و بالله التوفيق و الحول و القوة و إليه مفزعنا في درك كل طلبة و التوفيق لما فيه صلاح أمورنا من عمل بطاعته و عقد يرضاه و قول صادق يرفعه عمل صالح إنه على كلّ شيء قدير».⁵⁴

و يعدّ هذا الكتاب -الكامل- « من نوع المؤلفات التي يصعب اليوم إدراجها ضمن فرع من فروع الاختصاصات اللغوية و الأدبية، فهو جامع لأشتات من العلوم و المعارف لا يربط بينها إلا وقوعها في حيّز الأدب كما كان يفهمه العرب القدامى و لهذا عدّ من أمهات الأدب و أصوله».⁵⁵

إنّ هذا الكتاب يحتوي بين جوانبه على خطرات نقدية و بلاغية ذات بال تكشف عن أهمية الجهد الذي بذله صاحبه في تطوير مسائل هذا العلم. و هذه الخطرات متفاوتة القيمة فمنها قضايا نظرية عامة تتعلّق بضبط خصائص النص الأدبي و إبراز أبعاده الفنيّة و الجمالية و منها إشارات تعليمية تدور حول بعض الأساليب البلاغية من جهة تحديدها و إبراز أقسامها و دورها في الخروج بالكلام عن صبغة الاشتراك و العموم إلى صيغة متميّزة معدولة عن النمط العادي في استعمال الكلام .

⁵³- الفهرست: 268/267.

⁵⁴- الكامل: 2/1.

⁵⁵- المقدمة لابن خلدون- دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة-بيروت- لبنان- د.ط- د.ت: 1970.

و يرى الدكتور بدوي طبانة أنّ هذا الكتاب « زاهر بفنون الأدب، مع كثير من الشرح و التحليل، و كثير من النقد و الموازنة و قليل من الكلام في عناصر الأدب. و الطابع العام لهذا الكتاب هو أدب الرواية و إن كان يحتوي على كثير من آثار الفطنة و الفهم، كالبحت المستفيض الذي كتبه في فنّ التشبيه... و ككلامه في الكناية... و فيه كذلك كثير من النقد الأدبي الذي يدل على ملكة المبرّد و ذوقه الأدبي و تنبه حاسته الفنية، و لمحّه أخذ المعاني و سرقتها و محاولة إخفائها ».⁵⁶

بينما يرى الدكتور محمد زغلول سلام أن هذا الكتاب « في معاني الشعر كان أقرب إلى النقد الأدبي، لما سيطر على كاتبه من حسن تفهم و تذوق، و غوص على المعاني الدقيقة، و قدرة على التحليل البياني و اللّغوي... و هكذا يجري هذا الكتاب على سنن غيره من كتب المختارات الأدبية و النوادر، ثم الأمالي و المحاضرات، و شبيه بكتاب "البيان و التبيين" للجاحظ، و إن كان كتاب الجاحظ أخص موضوعا و ألزم لاتجاه بعينه، أما هذا فلم يتجه فيه صاحبه اتجاهها بعينه و لم يلزم سننا واضحا إنّما هي مختارات من النثر و الشعر يعرضها فيشرحها، و يستطرد الشرح إلى عرض نصوص أخرى و هكذا ».⁵⁷

و من آثاره أيضا المنشورة و المشهورة كتابه "المقتضب" في النحو و هو من « أنفس مؤلفاته و أنضج ثمراته و أصدق وثيقة سجلت آراءه و اتجاهاته، و لو تبارى النحويون لكان آخره جواد يقدمه المبرّد إلى السياق ».⁵⁸

حكى الرماني قال: « ذكر كتاب الأصول بحضرة ابن السّراج، فقال قائل هو أحسن من المقتضب فقال أبو بكر لا تقل هكذا و أنشد:

⁵⁶ - البيان العربي- لبدوي طبانة- دار الثقافة- بيروت- لبنان- 1406هـ/1985م: 79-80.

⁵⁷ - تاريخ النقد الأدبي و البلاغة حتى أواخر القرن الرابع الهجري- لمحمد زغلول سلام- منشأة المعارف بالإسكندرية- ط3- دب: 376-377.

⁵⁸ - أبو العباس المبرّد و أثره في علوم العربية- لمحمد عبد الخالق عزيمة- مكتبة الرّشد- الرياض- ط1- 1405هـ- 1949م: 127.

وَلَوْ قِيلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً *** بِسَعْدِي شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ

وَلَكِنْ بَكَيْتُ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكََا *** بُكَاهَا فَقُلْتُ الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ». ⁵⁹

و أبو علي الفارسي قد هضم المقتضب حقّه و هوّن أمره بقوله: « نظرت في المقتضب فما انتفعت منه بشيء إلا بمسألة واحدة و هي وقوع إذا جوابا للشرط » ⁶⁰، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ⁶¹.

يمتاز المقتضب بوضوح العبارة و قد يكون مرجع هذا إلى أن المبرّد نظر في الأدب، و الأدب صقال تحتك به العقول فيزول صدؤها و تتعلق به الألسنة فتعذب أسلاتها و تتعرض له الطباع فتلين جوانبها و ترق حواشيها. كما يمتاز بكثرة التطبيق، فقد عقب كثيرا من الأبواب بمسائل تطبيقية أطال فيها أو أكثر منها. ⁶²

و تعدّ رسالته "البلاغة" مشاركة جدّية للمبرّد في تطوير مسائل هذا العلم « فرغم صغر حجمها و تواضع مضمونها بالقياس إلى عنوانها تبدو لنا جديرة بالاهتمام، ناهيك أن صاحبها أول من أطلق البلاغة على بعض رسائله » ⁶³.

و الدافع إلى تأليفها رسالة وردت عليه من بعض أولي الأمر يسأله فيها رأيه في « أي البلاغتين أبلغ: أ بلاغة الشعر أم بلاغة الخطب و الكلام المنشور و السّجع؟ » ⁶⁴. فبيّن أن مصطلح البلاغة في هذه الرسالة « مستعمل في معنى خاص يتصل بغرض المفاضلة بين شكلين من أشكال الكتابة المنشور من جهة و المنظوم من جهة ثانية » ⁶⁵.

⁵⁹ - أبو العباس المبرّد و أثره في علوم العربية: 127.

⁶⁰ - معجم الأدباء: 143/7

⁶¹ - سورة الروم: 36.

⁶² - ينظر: أبو العباس المبرّد و أثره في علوم العربية: 134.

⁶³ - التفكير البلاغي عند العرب: 344.

⁶⁴ - البلاغة لأبي عباس محمد بن يزيد المبرّد- حقّقها و قدّم لها و صنع فهرسها رمضان عبد التّواب- مكتبة الثقافة

الدينية- ط2- ت 1405 هـ- 1985 م: 70.

⁶⁵ - التفكير البلاغي عند العرب: 344.

إن هذه الرسالة لا تتناول علم البلاغة بالتدريس و التبويب و التحديد و إنما هي آراء في جودة الشعر و جودة النثر و محاولة للمقارنة بينهما لم تنته إلى نتائج حاسمة. إذاً هذه الرسالة هي مشاركة نقدية تثير جملة من القضايا البلاغية تتصل بمقاييس جودة النص اعتماداً على بنائه اللغوي و بدون الاعتماد على عناصر أجنبية عنه.

ثانياً: جهود النحوية و البلاغية

1- جهود النحوية:

يعد المبرّد -بحق- آخر أئمة المدرسة البصرية المهمّين و لقد تأثر بسيبويه تأثراً واضحاً حتى إنه عدّ نفسه الأمين على النحو البصري بعده، و وقف بثبات أمام تحديات الكوفة و عصبيتهم و عمل جهده ألاّ يغيّر من مصطلحات سيبويه إلّا فيما لم يستطع سيبويه أيّ يقيّمه على صوى واضحة.⁶⁶

وصل تأثر المبرّد بسيبويه درجة أن كتابه "المقتضب" قارب أن يكون نسخة من كتاب سيبويه في كثير من المسائل و لا يخرج عن مصطلحات الكتاب إلّا قليلاً.⁶⁷ فالمصطلحات التي وردت عند سيبويه نجد المبرّد « استعملها كما كان سيبويه من قبل يفعل و الشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، بل لقد تابعه في بعض المصطلحات التي لم تأخذ شكلها النهائي. فسيبويه يسمّي الحرف المتحرّك حرفاً حياً فيحافظ المبرّد على هذا المصطلح بالرغم من عدم صلاحيته للبقاء، فتراه يقول عن الواو في مثل (جدول، و قسورة)، إنها ظاهرة حيّة أي متحركة و يقول في موضع آخر: " و المتحرك حرف حي " و سيبويه كان يطلق على الحال مصطلحات "الخبر، و الصفة، و المفعول فيه" فأخذ منها المبرّد مصطلح المفعول فيه و أطلقه على الحال كما عبّر عن الهمزة بالألف تماماً مثلما فعل سيبويه «.⁶⁸

⁶⁶ - ينظر المصطلح النحوي: نشأته و تطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري- لعوض حمد القوزي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1983- ط1- 1401هـ/1981م: 179.

⁶⁷ - نفسه: 156.

⁶⁸ - نفسه: 156.

و مجمل القول إنّ المبرّد وقف حارساً أميناً على مصطلحات سيبويه ليحفظ للمصطلح النحوي وجهه البصري الذي تضافرت جهود أئمة النحو على صناعته و تقدمت به البصرة خطوات كبيرة لا يزاحمها شرف هذه المسؤولية.

إن حرص المبرّد الشديد على المحافظة على مصطلحات سيبويه لا يعني أنه مقلّد لسيبويه في كلّ شيء بل إنّّه قد ساهم في تطور الدرس النحوي بآراء نحوية و صرفية أفادت النحاة بعده.

فمن آرائه النحوية حديثه عن البدل حيث قسّمه إلى أربعة أضرب شرحها:

الضرب الأول عرفه بقوله: « أن يبدل أحد الاسمين من الآخر إذا رجعا إلى واحد، ولا تبالي أتعرفين كانا أم معرفة و نكرة، و تقول: مررت بأخيك زيد، لأن "زيدا" هو الأخ، وكذلك: مررت برجل عبد الله، فهذا واحد »⁶⁹، مثلاً قول الله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾⁷⁰.

الضرب الثاني هو: « أن يبدل بعض الشيء منه »⁷¹ و مثل له بقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾⁷² و شرح البدل في الآية فقال: « من في موضع خفض، لأنها بدل من الناس »⁷³.

البدل الثالث ورد في الآية التالية: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَنِ الشَّهْرُ الْحَرَامُ فَقَالَ فِيهِ﴾⁷⁴ « لأن المسألة إنما كانت عن القتال: هل يكون في الشهر الحرام؟ »⁷⁵.

البدل الرابع عرفه بما يلي: « لا يكون مثله في القرآن و لا في الشعر، و هو أن يغلط المتكلم فيستدرك غلطه، أو ينسى فيذكر فيرجع إلى حقيقة ما يقصد له »⁷⁶، و مثل

⁶⁹ - الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد- عارضه بأصوله و علق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم و سيّد شحاتة- دار النهضة مصر للطبع و النشر: 17/3.

⁷⁰ - سورة الفاتحة: 6.

⁷¹ - الكامل: 17/3.

⁷² - سورة آل عمران: 97.

⁷³ - الكامل: 17/3.

⁷⁴ - سورة البقرة: 217.

⁷⁵ - الكامل: 18/3.

⁷⁶ - نفسه: 19.

له بالآتي: « مررت بالمسجد دار زيد، أراد أن يقول: مررت بدار زيد، فإمّا نسي و إمّا غلط، فاستدرك فوضع الذي قصد له في موضع الذي غلط فيه».⁷⁷

و لقد عرّف المبرّد أسماء الأفعال فقال: « ما جرى مجرى الفعل و ليس بفعل و لا مصدر، و لكنّها أسماء وضعت للفعل، تدلّ عليه، فأجرين مجراه ما كانت في مواضعها».⁷⁸
أما "عليك" فذكرها المبرّد « أنها بمعنى "خذ"، تقول: عليك زيدًا أي خذ زيدًا ».⁷⁹
أما سيبويه فيقول: "إذا"، قال: عليك زيدًا فكأنه قال: ائت زيدًا ».⁸⁰

و من آرائه في لولا عند اتصالها بالضمير قال: « نفسّر أشياء من العربية تحتاج إلى الشرح، من ذلك قوله: و لولاك، فإن سيبويه يزعم أن لولا "تخفض المضمر، و يرتفع بعدها الظاهر بالابتداء فيقال: إذا قلت لولاك، فما الدليل على أن الكاف مخفوضة دون أن تكون منصوبة، و ضمير النصب كضمير الخفض؟، فتقول: إنك تقول لنفسك لولاي، و لو كانت منصوبة لكانت النون قبل الياء كقولك: رماني و أعطاني... و زعم الأخفش سعيد أن الضمير مرفوع... قال أبو العباس: و الذي أقوله إن هذا خطأ لا يصلح إلا أن تقول لولا أنت »⁸¹، كما قال الله عزّ و جلّ: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُّؤْمِنِينَ﴾⁸².

و من آرائه الصرفية: تصغير الترخيم الذي عرّفه فقال: « هو أن تحذف الزوائد من الاسم ثمّ تصغر حروفه الأصلية، فتقول في تصغير أحمد: حميد لأنه من الحمد، و في الحارث: حرث لأنه من الحرث، و في غضبان: غضيب، لأنه من الغضب لأن الألف و النون زائدتان».⁸³

⁷⁷ - الكامل: 19.

⁷⁸ - التعبير الزمني عند النحاة العرب حتى القرن الثالث- ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية- 24/2.

⁷⁹ - الكتاب- سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر- تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون - دار الكتب العلمية- بيروت- ط3- 1408هـ-1988م: 50/1.

⁸⁰ - المقتضب لأبي العباس: 205/3..

⁸¹ - الكامل: 249/2-250.

⁸² -سورة سبأ: 31.

⁸³ - الكامل: 15/3.

و بيّن المبرّد طريقة صياغة اسم فاعله من الفعل الثلاثي الأجوف فقال: «و كذلك كلّ فعل من الثلاثة ممّا عينه واو أو ياء، إذا كانت معتلة ساكنة، تقول: قال يقول، باع يبيع، خاف يخاف، و هاب يهاب، يعتلّ اسم الفاعل فيهمز موضع العين نحو قائل، بائع، خائف و هائب».⁸⁴

و شرح أصل كلمة "المزمل" في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁸⁵، فقال: «و هو المتزمل، بشيابه، و التاء مدغمة في الزاي».⁸⁶

و تكلم عن كلمة "كائن و أصلها فقال: «و كائن معناه كم، و أصله كاف التشبيه دخلت على أي فصارتا بمنزلة كم».⁸⁷

و من آرائه أيضا و التي خالف فيها أستاذه سيبويه: «لا يكون فعل يفعل، إلا أن يكون يعرض له حرف من حروف الحلق الستة في موضع العين أو موضع اللام، فإن كان ذلك الحرف عينا فتح نفسه، و إن كان لاما فتح العين. و حروف الحلق الهمزة و الهاء و العين و الحاء و الغين و الخاء. و ذلك قولهم: قرأ يقرأ قرأ... و سيبويه يذهب في يأبى إلى أنه إنما انفتح من أجل أن الهمزة في موضع فائه، و القول عندي على ما شرحت لك من أنه إذا فتح حدث فيه حرف من حروف الحلق، فإنما انفتح لأنه يصير الألف و هي من حروف الحلق».⁸⁸

لقد استنبط المبرّد تلك الآراء بالأخذ بالسمع و التعليل و القياس.

(أ)-السمع: اعتنى المبرّد بالسمع عناية شديدة و مضى في إثر أستاذه المازني لا يرتضى بعض القراءات الشاذّة ما دامت لا تطرّد مع قواعده النحوية. و تشدد مثل سالفه في قبول الرواية عن العرب، و كان يطعن في رواية بعض الأشعار المأثورة مادامت لا تستقيم مع مقاييسه، حتى لو وردت عند سيبويه.

⁸⁴ - الكامل: 173/3.

⁸⁵ - سورة المزمل: 1-2.

⁸⁶ - الكامل: 91/3.

⁸⁷ - نفسه: 233/2.

⁸⁸ - نفسه: 366/1.

من بين الشواهد على ذلك أن سيبويه استشهد على تسكين المضارع في الضرورة الشعرية⁸⁹ بقول امرئ القيس⁹⁰:

فَالْيَوْمَ أَشْرِبُ غَيْرَ مُسْتَحَقِّبٍ *** إِنْثَمًا مِنْ اللَّهِ وَ لَا وَاعِلَ

و قال المبرّد: « ليست هذه هي الرواية الصحيحة للبيت إنما روايته الصحيحة في مطلعته هي: "فاليوم فاشرب"، و إذن يكون الفعل طبيعياً لأنه فعل أمر».⁹¹

(ب)-التعليل: كان المبرّد يعلل كل رأي يورده في كتابه و كان يتسع في ذلك سعة جعلته يعمّمه فيما لا حاجة للنطق به، من ذلك تعليله لمحيء الإعراب في آخر الكلم دون أوائلها و أواسطها، يقول: « لم يجعل الإعراب أولاً، لأن الأول تلزمه الحركة ضرورة للابتداء لأنه لا يبدأ إلا بمتحرك و لا يوقف إلا على ساكن فلما كانت الحركة تلزمه لم تدخل عليه حركة الإعراب لأن الحركتين لا تجتمعان في حرف واحد. و لما فات وقوعه أولاً لم يمكن أن يجعل وسطاً، لأن أواسط الأسماء مختلفة لأنها تكون ثلاثية و رباعية و خماسية و سباعية، فأواسطها مختلفة فلما فات ذلك جعل آخرها بعد كمال الاسم ببنائه و حركاته».⁹²

(ج)-القياس: احتكم المبرّد إلى القياس بعد الأخذ بالسمع عند العرب و كان يرفض ما قلّ على أكثر ألسنتهم، فقد كان يردّ ما يخالف الكثرة الكثيرة الدائرة في أفواههم و لكن حين لا توجد هذه الكثرة كان يفسح للقياس، و كذلك كان يفسح له حين يشيع استعمال بين العرب، و ليس معنى ذلك أنه كان يقيس على الشاذ و النادر، إنما كان يقيس على ما سمع كثيراً.

⁸⁹ - الكتاب: 297/2.

⁹⁰ - ديوان امرئ القيس- دار صادر- بيروت- ط1-د.ت: 149 و قد ورد بتمامه و لفظه.

فَالْيَوْمَ أَسْقَى غَيْرَ مُسْتَحَقِّبٍ *** إِنْثَمًا مِنْ اللَّهِ وَ لَا وَاعِلَ

⁹¹ -الخصائص- تحقيق محمد علي النجار- دار الكتاب العربي- 1371هـ/1956م: 74/1-75.

⁹² -المدارس النحوية: 131.

فمن ذلك أن العرب كثر على لسانهم استعمال صيغة فعّال مستغنين بها على ياء النسب كخبّاز و بّراز و قوّاز و سقّاء و بّناء و زجاج و بقال و خياط و نجّار و لبّان، وكذلك استعمال صيغة فاعل كحائك و شاعر أي ذي شعر و فارس أي ذي فرس و طاعم أي ذي طعام. لكن سيبويه كان يرى أن الصيغتين في النسب موقوفتان على السماع، و لا يقاس عليهما شيء و إن كان قد كثر في كلامهم « فلا يقال لصاحب البرّ بّراز و لا لصاحب الشعير شّعار و لا لصاحب الدقيق دقّاق و لا لصاحب الفاكهة فكّاه»⁹³. بينما المبرّد قاس الصيغتين جميعاً، محتجاً بأن ذلك في كلام العرب أكثر من أن يحصى و يستقصى.⁹⁴

و اهتم المبرّد بالتعريف و بالعوامل و المعمولات. أما التعريف فقد اتخذه في فاتحة كل باب من أبواب كتابه المقتضب من ذلك تعريفه للاسم و بيان العلامة التي تدلّ عليه، يقول: « الاسم ما كان واقعاً على معنى نحو رجل و فرس و زيد و عمر و ما أشبهه ذلك، و كل ما دخل عليه حرف من حروف الخفض فهو اسم، فإن امتنع من ذلك فليس باسم»⁹⁵. و العوامل له فيها بعض الآراء المتناثرة منها أن العامل في النعت المنعوت و في عطف البيان متبوعه و في التوكيد المؤكد. و كان سيبويه يذهب إلى أن الواو التي يجزّ بعدها المبتدأ المنكر إنما هي واو العطف و المبتدأ يكون مجروراً برّب المحذوفة في "و ليل كموج البحر أرخى سدوله" أما المبرّد فذهب إلى أنها ليست عاطفة بل هي حرف جرّ. و كان يسمي اسم كان و أخواتها فاعلاً و مفعولاً.⁹⁶

و تكثر آراؤه في المعمولات، و من ذلك: أن الأخفش كان يذهب إلى أن مذ و منذ حين يليهما اسم مرفوع في مثلاً مذيوم الخميس و مذ يومان يكونان طرفين مخبر

⁹³ - الكتاب- لسيبويه: 383/3.

⁹⁴ - ينظر المدارس النحوية: 133.

⁹⁵ - المقتضب: 231/2.

⁹⁶ - نفسه: 127.

بهما عمّا بعدهما و ذهب المبرّد إلى أنّهما مبتدآن و ما بعدهما خبر. و كان جمهور البصريين يذهب قبله إلى أن اسم لا النافية للجنس إذا كان مثنى أو جمع مذكر ركب معها و بني كما بني مفردهما و ذهب المبرّد إلى أنّ اسمها حينئذ يكون معرباً لأن لم يعهد فيهما التركيب مع شيء آخر و قال إنه لا يوجد في كلام العرب مثنى و جمع مبنيان.⁹⁷

2- جهوده البلاغية:

ساهم المبرّد في تطور الدرس البلاغي مساهمة جديرة بأن تذكر، و تظهر هذه المساهمة جلية للعيان في كتابه "الكامل" حيث أنه نشر بين دفتيه عدّة آراء كانت و لا تزال محطّ اهتمام دارسي البلاغة العربية. من هذه الآراء أذكر مبحثين رئيسيين بوّاه مكانة بارزة في تاريخ البلاغة العربية و هما:

المبحث الأول: علم المعاني:

1- أخرب الخبر:

روي عن ابن الأنباري أنّه قال: « ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العبّاس و قال له: إنّّي لأجد في كلام العرب حشوّاً، فقال له أبو العبّاس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون عبد الله قائم، ثم يقولون: إنّ عبد الله قائم، ثم يقولون: إنّ عبد الله لقائم: فالألفاظ متكرّرة و المعنى واحد. فقال أبو العبّاس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ. فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه، و قولهم: إنّ عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل. و قولهم: إنّ عبد الله لقائم: جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكرّرت الألفاظ لتكرّر المعاني فما أحرار الفيلسوف جواباً». ⁹⁸

تمكن المبرّد من فهم الاختلاف الواقع في المعاني بين الجمل التي ذكرها الكندي و تحدث عن خبر الجملة الاسمية.

⁹⁷- ينظر المدارس النحوية: 127.

⁹⁸- دلائل الإعجاز في علم المعاني- للإمام عبد القاهر الجرجاني صحح أصله علامتا المعقول و المنقول الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية و الشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي- علّق عليه محمد رشيد رضا- دار المعرفة- بيروت- لبنان- ط3- 1422هـ/2001: 209.

إن بدت هذه مسألة نحوية إلا أن البلاغيين المتأخرين تنبّهوا إلى قيمة ما اهتدى إليه المبرّد، وذكروا فضله في فتح بصائرهم على مختلف المعاني التي يؤديها الخبر الواحد إن اختلف جواره اللّغوي. و بذلك أدرجوه ضمن أدقّ مباحث المعاني و ألطفها و استعملوه حجة لأهمية النظم في تحديد المعنى .

و بفضل المبرّد أضاف المتأخرون بابا جديدا في علم المعاني سمّوه "أضرب الخبر" و أوجدوا لكل ضرب منه مصطلحا خاصا يوافقه، حيث سمّو الضرب الأول المجرد من التأكيد ابتدائيا و الضرب الثاني طلبيا و الضرب الثالث إنكاريا.⁹⁹

2- الاستفهام:

أشار المبرّد إلى بعض الصيغ التي خرجت عمّا وضعت له كصيغة الاستفهام مثلا: في قول عبد الله بن معاوية¹⁰⁰:

أَنْتَ أَحْيَى مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً *** فَإِنْ عَرَضْتَ أَتَيْتُنِي أَنْ لَا أَخَالِيَا

و وقف عندها قائلا: «إنّه تقرير و ليس استفهام و لكن معناه: أيّ قد بلوتك تظهر الإخاء فإذا بدت الحاجة لم أر من إحتائك شيئا».¹⁰¹

و قال الله عزّ و جلّ: ﴿أَأَنْتُمْ قُلْتُمْ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾¹⁰²،

وضّح المبرّد هذه الصيغة فقال: «إنّما هو توبيخ و ليس باستفهام و هو جلّ و عزّ العالم بأن عيسى لم يقله»¹⁰³.

⁹⁹ - ينظر التفكير البلاغي: 360.

¹⁰⁰ - الموجز في تاريخ البلاغة- لمازن المبارك- دار الفكر- ط2-1400هـ/1979م: 61.

¹⁰¹ - الكامل: 213/1.

¹⁰² - سورة الأنعام: 116.

¹⁰³ - الكامل: 213/1.

3- الالتفات:

تعرض المبرّد للالتفات في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾¹⁰⁴ حيث قال: « كانت المخاطبة للأمة، ثم صرفت إلى النبي صلى الله عليه و سلم إخباراً عنهم»¹⁰⁵. و ذكر أمثلة له من كلام العرب فقال: « العرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد و مخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب»¹⁰⁶.
كما في قول عنتره¹⁰⁷:

شَطْتُ مَزَارُ الْعَاشِقِينَ فَأَصْبَحْتُ *** عَسِيراً عَلَى طِلَابِكَ ابْنَةُ مُحَرَّم

« فكان يحدث عنها ثم خاطبها ».¹⁰⁸

و رأي المبرّد في الالتفات بصفة عامة يجري على ما كان مستقرّاً عليه منذ كتاب سيبويه.

4- التعقيد اللفظي:

تحدّث المبرّد عن التعقيد اللفظي « الذي يترتب عليه خفاء الدلالة على المعنى المراد في الكلام بسبب تأخير الكلمات أو تقديمها عن مواطنها الأصلية، أو بالفصل بين الكلمات التي يجب أن تتجاور و يتصل بعضها ببعض».¹⁰⁹
و في ذلك يقول: « و من أقبح الضرورة و أهجن الألفاظ و أبعد المعاني قوله:

وَ مَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا *** أَبُو أُمِّهِ حَيُّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ »¹¹⁰

¹⁰⁴-سورة يونس: 22.

¹⁰⁵-الكامل: 22/3.

¹⁰⁶-نفسه: 22/3.

¹⁰⁷- البيت غير موجود في الديوان.

¹⁰⁸-الكامل: 22/3.

¹⁰⁹- في تاريخ البلاغة العربية- لعبد العزيز عتيق- دار النهضة العربية- لبنان- ط1- د.ت: 41.

¹¹⁰- الكامل: 18/1.

و علّق عليه قائلا: « مدح بهذا الشعر ابراهيم بن هشام بن اسمعيل بن هشام بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم و هو خال هشام بن عبد الملك فقال و ما مثله في الناس إلا مملّكا يعني بالمملّكهشاما أبو أمّ ذلك المملّك أبو هذا الممدوح و لو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحا و كان يكون إذا وضع الكلام في موضعه أن يقول و ما مثله في الناس حيّ يقاربه إلا مملك أبو أمّ هذا المملّك أبو هذا الممدوح، فدلّ على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد و هجته بما أوقع فيه من التقديم و التأخير حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع في صدر رجل واحد». ¹¹¹

المبحث الثاني: علم البديع و البيان:

1- التشبيه:

بذل فيه المبرّد مجهودا شخصيا واضحا، و عمل على تطوير مسائله بكيفية لم نعهدها في الدراسات السابقة، و هو الباب الذي عقده للتشبيه و الذي سأتناوله في الفصل الثاني بالدرس و التحليل.

2- الكناية:

تعرض المبرّد للكناية بالدراسة فقال: « و الكلام يجري على ضروب، فمنه ما يكون في الأصل لنفسه و منه ما يكتّى عنه بغيره و منه ما يقع مثلا فيكون أبلغ من الوصف». ¹¹² إنّ هذا التعريف لأنواع الكلام يعدّ من الاعتبارات النظرية العامة التي ساهم المبرّد في بلورتها بصياغتها صياغة واعية لم يسبقه إليه أحد.

عبّر المبرّد عن الحقيقة بـ "ما يكون في الأصل لنفسه" و هي عبارة أبلغ من مصطلح "الحقيقة" في التعبير عن المعنى الحقيقي و أقرب منه إلى الوصف اللغوي الموضوعي لتجرّدها من كل المعاني المنطقية و الأخلاقية التي تلابس مصطلح الحقيقة.

¹¹¹ - الكامل: 18/1.

¹¹² - نفسه: 5/2.

و بالإضافة إلى ذلك تكشف عن الفرق الجوهرى بين أصناف التعبير. فمن الكلام ما لا يتجاوز معناه ذاته و لا يشير إلى شيء خارج عنه و عما يدل عليه أصل اللغة. فإدراك المعنى يتم بدون واسطة أو على الأصحّ يتم بواسطة العلامة الموضوعية له في اللغة. فالعلاقة بينه و بين قصد قائله تطابق علاقة لفظه بمعناه.¹¹³

أما النوع الآخر من الكلام فهو الكلام الذي يخفي كلاماً آخر موجوداً خارجه قصد إليه المتكلم بطريقة غير مباشرة فجعل الكلام المائل في النص لفظه و معناه علامة على المعنى الغائب و مسلماً لإدراكه. بمعنى أننا في هذا النوع الثاني من الكلام نعدد الوسائط و نولد ثنائية اللفظ و المعنى أو الشكل و المضمون بحيث يصبح هذا الأخير وسيلة التعبير لا غايته.¹¹⁴

و لقد قسم المبرّد الكناية إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول¹¹⁵: للتعمية و التغطية كقول النابغة الجعدي¹¹⁶:

أَكْتَى بِغَيْرِ اسْمِهَا وَ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ خَفِيَّاتِ كُلِّ مَكْتَمٍ.

النوع الثاني: الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش، و هو نوع من الكناية الاصطلاحية. قال المبرّد فيه: «و يكون من الكناية، و ذلك أحسنها -الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره».¹¹⁷

و قد مثل المبرّد لها و هو يفسّر قوله تعالى في المسيح ابن مريم و أمه -صلى الله عليهم ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾¹¹⁸ بقوله: «و إنّما هو كناية عن قضاء الحاجة».¹¹⁹

¹¹³ - ينظر التفكير البلاغي: 352.

¹¹⁴ - نفسه: 352.

¹¹⁵ - تناول ابن قتيبة هذا النوع من الكناية فقال: أن الدافع إلى الكناية هو الخوف من إظهار الاسم، و لذلك تشتد الحاجة إلى الخفاء و العمل على المداجة. ينظر: تأويل مشكل القرآن باب الكناية و التعريض.

¹¹⁶ - البيت غير موجود في الديوان..

¹¹⁷ - الكامل: 6/2.

¹¹⁸ - سورة المائدة: 75.

¹¹⁹ - الكامل: 6/2. و يذكر ابن قتيبة أن الكناية في هذه الآية كناية عن الحدث، لأن من أكل لابد أن يحدث.

و فسر قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِبُلُودِهِمْ لَمَّا شَهِدْتُمْ حَلِيلًا﴾¹²⁰ بقوله: «و إنما هي كناية عن الفروج و هذا كثير».¹²¹

النوع الثالث¹²²: التفخيم و التعظيم، يقول: «و منه اشتقت الكنية و هو أن يعظم الرجل أن يدعى باسمه و وقعت في الكلام على ضربين وقعت في الصبي على جهة التفاؤل بأن يكون له ولد و يدعى بولده كناية عن اسمه، و في الكبير أن ينادى باسم ولده صيانة لاسمه و إنما يقال كني عن كذا بكذا لبعض ما ذكرنا».¹²³

و ماعدا هذه الأقسام التي وردت في "الكامل"، ذكر الكناية بلفظها أو ما يفيد معناها في مواطن كثيرة، مركزا على ما جرى على لسان العرب منها تكنيتهم عن المرأة بالبقرة و النعجة.¹²⁴

و خلاصة القول إن الكناية في "الكامل" لم تخرج عن الحدود التي رسمها اللغويين و علماء البلاغة قبله سواء في شقها اللغوي أو الاصطلاحي. إلا أنه جمع مسائلها في باب واحد.

و لعل أبرز مظاهر التأثير بأسلافه بقاؤها عنده مرتبطة أشد الارتباط بالعامل الأخلاقي و المواضع الاجتماعية التي كانت سببا في نشأتها، يدل على ذلك استحسانه لضربحها الثاني.

بالإضافة إلى هذه المباحث الرئيسية سوف أذكر بإيجاز بعض الإشارات البلاغية التي وقف أمامها المبرّد في كتابه "الكامل" و هو يفسر بعض آيات القرآن و ذلك إمّا تصرّحا أو تلميحاً.

¹²⁰ - سورة فصلت: 21.

¹²¹ - الكامل: 6/2.

¹²² - سبق لابن قتيبة أن تناول هذا النوع من الكناية و قال: أن تكنى عن الرجل بالأبوة لتعظمه في المخاطبة بالكنية. ينظر: كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة.

¹²³ - الكامل: 6/2.

¹²⁴ - ينظر: الكامل: 1-166/381..

3- صور من المجاز:

تناول المبرّد المجاز في مواضع متفرقة من كتابه الكامل دون أن يفرد له باباً أو يسميه باسمه الاصطلاحي المعروف أو يقصد إليه قصداً، وإنما ذكره استطراداً و تنوعاً لأغراض الحديث كما هي عادة المتقدمين من العلماء كالجاحظ و ابن قتيبة.¹²⁵

و من أمثلة المجاز ذكر قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾¹²⁶، و المعنى: «بَلَمَكْرُهُمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ».¹²⁷

و من نافلة القول: إن هذه الصورة فيها مجاز عقلي، أسند فيها الفعل أو أضيف مصدر إلى غير ما هو له، مما له به ملابسة معتبرة في العلاقات المجازية: و هي هنا — الزمان — فالليلة يمكر فيها كما يمكر في النهار، و ينام فيها.

و قال جرير¹²⁸:

لَقَدْ لُمْتَنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السُّرَى *** وَ نَمْتِ، وَ مَا لَيْلُ الْمُطَيِّ بِنَائِمِ*

فالمجاز هو في قول الشاعر "و ما ليل المطيِّ بنائم" فإسناد النوم إلى ليل المطيِّ مجازي غير حقيقي، أن ليل المطيِّ لا يحدث فيه النوم على الحقيقة، و إنما يقع فيه الفعل، أي ينام فيه. إذن الليل ليس بنائم إنما هو منوم فيه، و على هذا ففي كلمة "نائم" مجاز عقلي علاقته "المفعولية".

و البلاغيون — بعده — لم يزيدوا شيئاً على ما قاله و كذلك من سبقه أو عاصره من الرواد التقوا جميعاً عند هذا المعنى في توضيح إسناد الفعل إلى غير ما هو له.

و يذكر المبرّد عدّة آيات يفسرها، و يبيّن ما فيها من مجاز و خاصة المجاز العقلي¹²⁹، و من هذه الصور ما ذكره في قوله تعالى: ﴿اسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا،

¹²⁵ - ينظر: الكامل: 68/2 - 223-212/1.

¹²⁶ - سورة سبأ: 33.

¹²⁷ - الكامل: 135/1.

¹²⁸ - ديوان جرير: دار صادر بيروت ط1 - 1991م: 454.

* - السُّرَى: سير الليل عامته. ينظر: لسان العرب لابن منظور - دار صادر بيروت لبنان - ط3 - 1954م: 381/14.

¹²⁹ - ينظر: المقتضب: 105/3 - 230-162 - 331/4.

وَالْعِيدَ الَّذِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ¹³⁰. و يسترسل قائلا: « نصب لأنه كان و اسأل أهل القرية »¹³¹. و يضيف بعض أقوال العرب: « و تقول بنو فلان يطؤون الطريق تريد أهل الطريق فحذفت أهل فرفعت الطريق لأنه في موضع مرفوع فعلى هذا فقس إن شاء الله »¹³²، حيث حذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه و أعطى حكمه.

و من صور المجاز المرسل عند المبرّد تفسيره لقوله تعالى حكاية عن نبي الله ابراهيم عليه السلام، قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِيهِ الْآخِرِينَ﴾¹³³ قال « ثناء حسن »¹³⁴، و في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَمْصَرُ خَمْرًا﴾¹³⁵. قال: « أي أعصر عنبا فيصير إلى هذا الحال »¹³⁶. و هذا طبعا مجاز مرسل و علاقته باعتبار ما يكون.

يلاحظ المتتبع للفظه "مجاز" في كتاب "الكامل" للمبرّد أنّها تدل على "التفسير" أي بنفس المعنى الذي وردت فيه في معاني القرآن للقرّاء و مجاز القرآن لأبي عبيدة و غيرهما لأن المجاز بمعناه البلاغي المعروف لنا اليوم لم يكن قد ظهر قبل عصر المبرّد. يوضح ذلك قول المبرّد: « و نذكر آيات من القرآن ربما غلط في مجازها النحويون »¹³⁷.

قال الله عزّ و جلّ: ﴿إِنَّهَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾¹³⁸، قال المبرّد: « مجاز الآية أنّ المفعول الأول محذوف، و معناه: يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ »¹³⁹.

¹³⁰ - سورة يوسف: 82.

¹³¹ - الكامل: 88/1.

¹³² - نفسه: 88/1.

¹³³ - سورة الشعراء: 84.

¹³⁴ - الكامل: 378/1.

¹³⁵ - سورة يوسف: 36.

¹³⁶ - الكامل: 92/3.

¹³⁷ - نفسه: 127/4.

¹³⁸ - سورة آل عمران: 51.

¹³⁹ - الكامل: 127/4.

و في القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾¹⁴⁰. قال: «و الشهر لا يغيب عنه أحد، و مجاز الآية: فمن كان منكم شاهداً بلده في الشهر فليصمه، ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ﴾ أي فمن كان شاهداً في شهر رمضان فليصمه نصب الظروف و لا نصب المفعول به». ¹⁴¹

ما ذهب إليه المبرّد من تفسير الشهادة بالحضور و الإقامة بالبلد غير مسلم به، و إن تابعه عليه جار الله الزمخشري في تفسير الكشاف.¹⁴²

و ذهب جمهور المفسرين أن المراد من الشهادة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ رؤية الشهر -يعني الهلال- لا عدم السفر- نصّ على ذلك القرطبي و له في المسألة بحث مستفيض¹⁴³. و هو الأرجح لأن حكم المسافر تقدّم قبل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾¹⁴⁴.

4- الاستعارة:

تحدّث المبرّد عن الاستعارة¹⁴⁵ في تفسيره لكثير من آيات القرآن، و كان رائداً في هذا الدرس من دروس البلاغة القرآنية. و يكفي المبرّد فخراً أنه ممّن مهّدوا للقول بالاستعارة في الحرف¹⁴⁶، و قد لفت نظره إليها قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّنَّ، فَلَا تَقْطَعْنَ أَيِّدِيكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِهِ، وَ لَأُعَلِّبَنَّكُمْ فِيهِ جُذُوعَ النَّخْلِ﴾¹⁴⁷. قال المبرّد في تفسيره لها: «أي "على" و لكنّ الجذوع إذا أحاطت دخلت "في" لأنها للوعاء، يقال: "فلانٌ في النخل" أي قد أحاط به. قال الشاعر:

¹⁴⁰ - سورة البقرة: 185.

¹⁴¹ - الكامل: 127/4-128.

¹⁴² - الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل- لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي- دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع- ط1- د.ت: 336/1.

¹⁴³ - ينظر الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي- اعتنى به و صححه الشيخ هشام سمير البخاري- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان- ط1- 1466هـ/2002م: 194/1.

¹⁴⁴ - سورة البقرة: 174.

¹⁴⁵ - ينظر: المقتضب: 188/3.

¹⁴⁶ - ينظر: نفسه: 139/4.

¹⁴⁷ - سورة طه: 71.

هُمْ صَلَبُوا الْعَبْدِي فِي جَذَعِ نُحْلَةٍ *** فَلَا عَطَسَتْ شَيْبَانُ إِلَّا بِأَجْدَعَا¹⁴⁸
و قال عزّ و جلّ: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾¹⁴⁹، قال: «أي عليه»¹⁵⁰.
و قال تبارك و تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِّن خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّن أَمْرِ اللَّهِ﴾¹⁵¹،
قال: «أي بأمر الله»¹⁵².

هذه النماذج التي ساقها المبرّد حيث حلّ فيها حرف محل حرف آخر. و جمهور
البلاغيين يعدّون هذا التصرف من الاستعارة التصريحية التبعية.

و في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَ طَبَعَ اللَّهُ مَلَى قُلُوبِهِمْ﴾¹⁵³، قال: «و الطّبع أسوأ الطمع
و أصله أن القلب يعتاد الخلّة الدنيئة فتركبه كالحائل بينه و بين الفهم لقبح ما يظهر منه،
و هذا مثل و أصله في السيف و ما أشبهه، يقال: طبع السيف، إذا ركه صدا يستر
حديده و ﴿وَ طَبَعَ اللَّهُ مَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ من ذا»¹⁵⁴.

هذا كلام المبرّد و هو كلام رائع جدّا حيث شبّه الرّين الذي يصيب القلوب
فيفسدها و يمنع صفاءها و إدراكها للحق و الإذعان له بالصدأ الذي يكسو السيوف
فيمنع بريقها و حدّتها و يصيبها بالتآكل و التلف، فهو استعارة تصريحية أصلية، و الجامع
ما يترتب على كل من المضار و المفساد، و القرينة استحالة أن يصيب القلوب لصدأ
المألوف الذي هو آفة الحديد.

قال الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَن خَلَقَكَ آيَةً﴾¹⁵⁵.
قال المبرّد في تفسير هذه الآية: «فليس معنى "ننجيك" نخلصك، و لكن نلقيك
على نجوة من الأرض بيدنك: بدرعك، يدلّ على ذلك ﴿لَتَكُونَ لِمَن خَلَقَكَ آيَةً﴾»¹⁵⁶.

148- الكامل: 98-97/3.

149- سورة الطور: 38.

150- الكامل: 98/3.

151- سورة الرعد: 11.

152- الكامل: 98/3.

153- سورة التوبة: 9.

154- الكامل: 39/4.

155- سورة يونس: 93.

إن تفسيره لهذه الآية ممكن أن يسلك في صور المجاز، لأن الإنجاء يكون بالسلامة من الهلاك، و ليس هذا بوارد في شأن فرعون "الخروج و الغرق" فيكون تفسير المبرّد الإنجاء بالإلقاء، على هذا وجهها و يكون في التعبير استعارة ساخرة و عظة لمن على شاكلته.

3- مساهماته النقدية:

يجدر بنا و نحن نتحدّث عن إسهامات المبرّد البلاغية أن نشير إلى أنه قد كانت له مساهمات نقدية لما للبلاغة من علاقة وثيقة بالنقد خاصة في ذلك العهد.

من هذه المساهمات آراؤه في بعض الأشعار:

قال: « من ألفاظ العرب البيّنة القرينة المفهمة الحسنة الوصف الجميلة

الوصف»¹⁵⁷

قول الحطيئة¹⁵⁸:

وَ ذَاكَ فَتَىٰ إِنَّ تَأْتِيهِ فِي صَنِيعَةٍ *** إِلَىٰ مَالِهِ لَا تَأْتِيهِ بِشَفِيعِ

و كذلك قول عنتره¹⁵⁹:

يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي *** أَغْشَى الْوَعَى وَ أَعَفُّ عِنْدَ الْمُغْنَمِ

و كما قال زهير¹⁶⁰:

عَلَىٰ مَكْثَرِهِمْ حَقٌّ مِنْ يَغْتَرِيهِمْ *** وَ عِنْدَ الْمُقْلَيْنِ السَّمَاخَةُ وَ الْبَذْلُ

¹⁵⁶ - الكامل: 128/4.

¹⁵⁷ - الكامل: 17/1.

¹⁵⁸ - ديوان الحطيئة من رواية بن حبيب عن ابن الأعرابي و أبي عمرو الشيباني- شرح أبي سعيد السّكري- دار صادر بيروت- ط1- د.ت: 184 - و قد ورد فيه بغير اللفظ و اللفظ بتمامه

وَ ذَاكَ فَتَىٰ إِنَّ تَأْتِيهِ لِصَنِيعَةٍ *** إِلَىٰ مَالِهِ لَا تَأْتِيهِ بِشَفِيعِ

¹⁵⁹ - ديوان عنتره- دار صادر- بيروت- ط1- 1416هـ-1996م: 25.

¹⁶⁰ - ديوان زهير بن أبي سلمى- دار صادر بيروت: 62.

و مما وقع كالإيماء قول الفرزدق¹⁶¹:

ضَرَبْتَ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا *** وَ قَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ

و يرى المبرد في قول الشاعر¹⁶²:

وَ الشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ *** لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

أنه: أوضح معنى و أعرب لفظ و أقرب مأخذ.

و يفضل قول أبي حية النّميري¹⁶³:

رَمَتْنِي وَ سِتْرُ اللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَهَا *** عَشِيَّةَ أَرَامِ الْكِنَاسِ رَمِيمٌ*

لأنه: « تخلصه من التكلف و سلامته من التزيد و بعده من الاستعانة».¹⁶⁴

و مما يستحسن لفظه و يستغرب معناه و يحمد اختصاره قول أعرابي من بني كلاب¹⁶⁵:

فَمَنْ يَكُ لَمْ يَغْرَضْ فَإِنِّي وَ نَاقَتِي *** بِحَجَرٍ إِلَى أَهْلِ الْحِمَى غَرَضَانِ
يَحْنُ فُتُبْدِي مَا بِهَا مِنْ صَبَابَةٍ *** وَ أَخْفِي الَّذِي لَوْلَا الْأَسَى لَقَضَانِي

و شرحه بقوله: « و أمّا قوله لقضاني فإنما يريد لقضى عليّ الموت ... أخرج له لفصاحته

و علمه بجوهر الكلام أحسن مخرج»¹⁶⁶.

¹⁶¹ - ديوان الفرزدق: 155/2 - دار صادر للطباعة و النشر بيروت - 1380 هـ/1960 م.

¹⁶² - الكامل: 18/1.

¹⁶³ - نفسه: 18/1.

* - الكناس: الموضع الذي تأوي إليه الضباء - رميم: اسم جارية. ينظر: لسان العرب: 275/6 - 92/12.

¹⁶⁴ - الكامل: 19/1.

¹⁶⁵ - نفسه: 21-20/1.

¹⁶⁶ - نفسه: 21/1.

و ممّا يستحسن إنشاده من الشعر «لصحّة معناه و جزالة لفظه و كثرة تردّد ضربه من المعاني بين الناس قول ابن ميادة لرياح بن عثمان بن حيّان المري من مرّة غطفان و كلاهما من مرّة غطفان بقوله في فتنة محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن و كان أشار عليه بأن يعتزل القوم فلم يفعل فقتل»¹⁶⁷ فقال ابن ميادة¹⁶⁸:

أَمَرْتُكَ يَا رِيَّاحُ بِأَمْرِ حَزْمٍ *** فَكُلْتَ هَشِيمَةً مِنْ أَهْلِ بَجْدٍ
نَهَيْتُكَ عَنْ رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ *** عَلَى مَحْبُوكَةِ الْأَصْلَابِ جُرْدٍ
وَ وَجَدًا مَا وَجَدْتُ عَلَى رِيَّاحٍ *** وَ مَا أَغْنَيْتُ شَيْئًا غَيْرَ وَجْدِي.

¹⁶⁷ - الكامل: 28/1.
¹⁶⁸ - الأبيات غير موجودة في الديوان.

الفصل الأول

التشبيه قبل المبرّد

الفصل الأول : التشبيه قبل المبرد

تمهيد

أولا : التشبيه عند سيبويه

ثانيا : التشبيه عند الفراء

ثالثا : التشبيه عند أبي عبيدة

رابعا : التشبيه عند الجاحظ

خامسا : التشبيه عند ابن قتيبة

ملخص:

عني الباحثون بدراسة التشبيه عناية واضحة نلاحظها عند تصفح كتب التفسير والأدب والشعر واللغة، وهذا الاهتمام راجع إلى شيوع هذا اللون البياني وجريانه في فنون الكلام فضلاً عن وجودها في القرآن الكريم وأحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالإضافة إلى أنها أكثر الأنواع البلاغية جذباً للانتباه وإثارة للإعجاب.

و لا غرابة أن يكون التشبيه من أكثر الصور الفنية حظوة لدى المتقدمين والمتأخرين أيضاً، فالشعر العربي القديم يعجّ به، وهو عند النقاد والعلماء من مقاييس الجودة الرئيسية، ولم يكن الشعراء أنفسهم يشذّون عن هذا فقد « قيل لبشار: بم فقت أهل عمرك و سبقت أبناء عصرك في حسن معاني الشعر و تهذيب ألفاظه؛ قال: لأني لم أقبل كلّ ما تورده على قريحتي و يناعيني به طبعي و يبعثه فكري و نظرت إلى مغارس الفطن و معادن الحقائق و لطائف التشبيهات فسرت إليها بفكر جيّد... ».¹⁶⁹

و لقد اقترنت البراعة في صياغة التشبيه لدى بعض الشعراء الأوائل بالبراعة في نظم الشعر نفسه حيث وردت روايات كثيرة تصب في هذا المعنى من بينها ما روي عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت-و كان صبيّاً- جاء إلى أبيه باكياً يقول: « لَسَعَنِي طائر! قال: فصفه لي يا بني! قال: كأنه ثوب حبرة. قال حسان: قال ابني الشعر و ربّ الكعبة. و كان الذي لسعه زنبور ».¹⁷⁰

و يعتبر نزول القرآن الباعث الأول لظهور حركة التأليف إذ كان ظهور أول كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت209هـ) سببه مسألة التشبيه الواردة في الآية الكريمة: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.¹⁷¹

¹⁶⁹ - العمدة في محاسن الشعر و آدابه- للإمام أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني- تحقيق محمد قرقران- دار المعرفة- بيروت- ط1- 1987: 239/2.

¹⁷⁰ - كتاب الحيوان للجاحظ- تحقيق و شرح عبد السلام هارون- دار الجيل- بيروت- ط1- 1416هـ/1996م: 65/3.

¹⁷¹ -سورة الصافات: 65.

و بهذا يعدّ التشبيه من المصطلحات الأولى التي عرفتھا البلاغة العربية و أقدم ما وصلنا فيه جاء في "كتاب" سيويه و "مجاز القرآن" لأبي عبيدة و "معاني القرآن" للفرّاء و كتابي "البيان و التبيين و الحيوان" للجاحظ و "الشعر و الشعراء" لابن قتيبة، و تعد هذه المؤلفات اللبنة الأولى التي تركّزت عليها مباحث القرون اللاحقة.

و قبل الخوض في دراسة التشبيه عند هؤلاء، ارتأيت أن أتعرض لنقطة هامة صادفتني أثناء البحث، و هي: هل مصطلح التشبيه عربيّ الأصل أم أنّه مستمد من بلاغة أرسطو؟. تحجّج البعض بأن أصل التشبيه راجع إلى اليونان، لأن أرسطو هو من أورد عبارة (كّرأسداً) أو (كّر كالأسد) للفرقة بين المجاز و التشبيه في كتابه الخطابة، و أن النحاة و اللّغويين العرب أخذوها عنه؛ لكن كتاب الخطابة لأرسطو لم يترجم قبل سنة 260هـ على أقرب الاحتمالات، أضف إلى ذلك أن أحداً من هؤلاء البلاغيين المتقدمين لم ترد عنده عبارة (كّر زيداً أسداً) مطلقاً، على حين نجد عبارة أخرى كثيرة الدوران على ألسنة النحويين منذ أن أوردها سيويه، الذي عرف بدقّة حفظه لأقوال العرب و احتجّاه بكلام الفصحاء¹⁷²، حيث قال: « تقول مررت برجل أسد أبوه إذا كنت تريد أن تجعله شديداً، و مررت برجل مثل الأسد إذا كنت تشبهه».¹⁷³

أولاً: التشبيه عند سيويه (ت 180هـ):

يعدّ كتاب سيويه أوّل كتاب ورد فيه مصطلح التشبيه بمعناه البلاغي المعروف، حيث تحدث عنه ضمن باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام و الإيجاز و الاختصار، فقال: « و مثله في الاتساع قوله عزّ و جلّ: ﴿وَمَثَلُ الْذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذّٰى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا كُفَّاءً ۚ وَنِدَاءً﴾¹⁷⁴، فلم يشبّوها بما ينعق، و إنّما

¹⁷²- ينظر البلاغة العربية في فنونها- محمد علي سلطاني- مطبعة زيد بن ثابت ط1-1979-106:1980.

¹⁷³- الكتاب- لسيويه: 28/2.

¹⁷⁴- سورة البقرة: 171.

شبهوا بالمنعوق به. و إنما المعنى: مَثْلُكُمْ و مثل الذين كفروا كمثل النّاعق و المنعوق به الذي لا يسمع، و لكنّه جاء على سعة الكلام و الإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى».¹⁷⁵

كما أنّه لم يفته الحديث عن بعض أدوات التشبيه، فقال في باب آخر من أبواب إنّ متحدثاً عن كأنّ « و سألت الخليل عن كأنّ، فزعم أنّها إنّ لحقتها الكاف للتشبيه، و لكنّها صارت مع إنّ بمنزلة كلمة واحدة»¹⁷⁶. و في باب ما جرى مجرى كم في الاستفهام يذكر أن الكاف هي التي تنقل معنى التشبيه إلى أنّ فتصير بمنزلة شيء واحد إذ يقول: « و إنّما تجيء الكاف للتشبيه، فتصير و ما بعدها بمنزلة شيء واحد، و من ذلك قولك: كأنّ، أدخلت الكاف على أنّ للتشبيه».¹⁷⁷

و تنبّه سيبويه للكاف و إفادتها للتشبيه، فقال في باب الجر: « و إذا قلت: أنت كعبد الله، فقد أضفت إلى عبد الله الشبه بالكاف».¹⁷⁸

ثم أورد شاهدين من كلام العرب يدلان على أنّهم جعلوا الكاف في أشعارهم بمنزلة مثل فقال: «إلاّ أنّ ناساً من العرب إذا اضطرّوا في الشعر جعلوها بمنزلة مثل، قال الراجز - و هو حميد الأرقط - "فَصَيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ"* . و قال خَطَّامُ المَجَاشِعِيِّ: "وَ صَالِيَاتِكُمْ مَأْيُوثَفَيْنَ"*».¹⁷⁹

و قد لمّح سيبويه إلى ركني التشبيه و وجه الشبه في باب صار الفاعل فيه بمنزلة الذي فعل في المعنى، و ما يعمل فيه فقال: « و قد يشبّهون الشيء بالشيء و ليس مثله في جميع أحواله».¹⁸⁰

¹⁷⁵ - الكتاب- لسيبويه: 212/1.

¹⁷⁶ - نفسه: 151/3.

¹⁷⁷ - نفسه: 171/2.

¹⁷⁸ - نفسه: 421/1.

* - الشاهد فيه إدخال "مثل" على الكاف لأن الكاف بمعنى مثل، و التقدير مثل مثل عصف، و جاز التكرار لاختلاف اللفظين.

** - و شاهده استعمال الكاف الثانية موضع "مثل" و التقدير: كَمَا يُوثَقِينَ أي كمثل حالها إذا كانت أثنافي مستعملة. صاليات: أثنافي القدر لأنها صليت نارا. الأثنافي: الحجر الذي يوضع عليه القدر. ينظر: لسان العرب: 205/14 - 3/9.

¹⁷⁹ - الكتاب: 408/1.

¹⁸⁰ - نفسه: 182/1.

بالإضافة إلى ذلك ذكر طريقة التشبيه المعتمد على البدل أو المصدر المنصوب، فقال في باب ما شبه من الأماكن المختصة بالمكان غير المختص: «و قد زعم يونس أن ناسًا يقولون: هو مَيِّ مَزَجَرُ الْكَلْبِ، يجعلونه بمنزلة مرأى و مسمع. و كذلك مَقْعَدٌ وَ مَنَاطٌ، يجعلونه هو الأوّل فيجري كقول الشاعر:

وَ أَنْتَ مَكَائِكَ مِنْ وَائِلٍ *** مَكَانَ الْقِرَادِ مَنْ أَسَتْ الْجَمَلُ*

و إنما حسن الرفع هنا لأنه جعل الآخر هو الأول، كقولك: له رأسُ رأسِ الحمار، و لو جعل الآخر ظرفاً جاز، و لكنّ الشاعر أراد أن يشبّه مكانه بذلك المكان».¹⁸¹
و من شواهد التشبيه المعتمد على المصدر المنصوب ذكر سيبويه أنك تقول: «مررت به فإذا له صوتٌ صوتَ حمار، و مررت به فإذا له صراخٌ صراخَ الثّكلى»¹⁸². قال الشاعر و هو النابغة الذبياني¹⁸³:

مَقْدُوفَةٌ بِدَخِيسِ النَّحْضِ بَازِلُهَا *** لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفَ الْقَعْوِ بِالمَسَدِ*

و يضيف في موضع آخر: «يدلّك على ذلك أنك لو أدخلت "مثل" ههنا كان حسناً و كان نصباً، فإذا أخرجت "مثل" قام المصدر النكرة مقام مثل، لأنّه مثله نكرة، فدخل مثل يدلّك على أنّه تشبيه. فإذا قلت: فإذا هو يصوّت صوت حمار، فإن شئت نصبت على أنه مثال وقع عليه الصوت».¹⁸⁴

*- القرد ذويبة تعض الإبل، جعل مكانه من وائل شبيهاً بمكان القرد من أسّت الجمل في الخسة و الدناءة. ينظر: لسان العرب: 348/3.

¹⁸¹ - الكتاب: 416/1-417.

¹⁸² - نفسه: 355/1.

¹⁸³ - ديوان النابغة الذبياني- تحقيق كرم البستاني- دار صادر بيروت- لبنان- ط1- دت: 31.

*- النحض اللحم- الدخيس، ما تداخل منه و تراكب- البازل: السن تخرج عند بلوغ الناقة التاسع من عمرها. مقذوفة: مرمية. الصريف: صوت أنيابها إذا حكّت بعضها ببعض نشاطاً. القعو: ما تدور عليها البكرة إذا كان من خشب- المسد: حبل من ليف أو جلد. وصف الشاعر الناقة بالقوة و النشاط. ينظر: لسان العرب: 236/7- 191/9-324/11-77/6-406/3-324/14.

¹⁸⁴ - الكتاب: 360/1.

كما أنّ قول الشاعر "له صريفٌ صريفَ القعو" يجري هذا المجرى و يأخذ هذا الحكم و هو نصب "صريف" الثانية على المصدر التشبيهي. و لو قلنا: "و له صريفٌ مثل صريفِ القعو" لكان الكلام حسنا مستقيما. بينما رأى الخليل أنّه يجوز لنا القول: « صوتٌ صوتُ الحمار على الصفة لأنّه تشبيه».¹⁸⁵

و أضاف أنه يمكن لنا أن نقول: «هذا رجلٌ أخو زيدٍ، إذا أردت أن تشبّهه بأخي زيدٍ، و هذا قبيح ضعيفٌ لا يجوز إلّا في موضع الاضطرار».¹⁸⁶

و مجمل القول إنّ سيبويه عالج التشبيه معالجةً بسيطة و تناوله على أنّه أسلوب في التعبير لا غير، كما أنّه أشار إلى الأسلوب و بعض أدواته مجردًا عن كلّ تعمق في وظيفته و أثره الفنيّ ملتبسا بقضايا الإعراب.

ثانيًا: التشبيه عند الفراء (ص 207هـ):

يأتي الفراء في مقدمة من اهتم بالمسائل البيانية حيث تضمن كتابه "معاني القرآن" -الذي عني فيه بتأويل و تفسير، أي الذكر الحكيم مع شرح ما في الآيات من الغريب و الإعراب و القراءات شروحًا مختلفة، الإشارة إلى بعض الصور البيانية من بينها التشبيه و المثل « و هذان اللَّفظان أيضًا من أوّل الاصطلاحات التي بدأت تظهر في الدراسات القرآنية دالة على صور بيانية، لكنّها لا تزال عند الفراء تطلق في حدود المعنى اللّغوي و إن كانت تشير إلى المعنى البلاغي».¹⁸⁷

و لقد تناول الفراء التشبيه و المثل عند تفسيره لآيات من القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى: ﴿حَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾¹⁸⁸ حيث قال: « و في الإنجيل أيضًا "كمثلهم في القرآن، و يقال ﴿حَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ و ﴿وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ كَزَرْعٍ أُحْزِمَ شَطَأُهُ» و شطؤه السنبلة، تنبت الواحدة عشرًا و ثمانية و سبعة فيقوي بعضه

¹⁸⁵ - الكتاب: 361/1.

¹⁸⁶ - نفسه: 361/1.

¹⁸⁷ - أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري- محمد ز غلول سلام- قدم له محمد خلف الله أحمد-

مكتبة الشباب- ط1: 56.

¹⁸⁸ - سورة الفتح: 29.

بعضاً، فذلك قوله فأزره، و قواه فاستغلظ ذلك فاستوى، و لو كانت واحدة لم تقم على ساق، و هو مثل ضربه الله عزّ و جلّ للنبي -صلى الله عليه و سلم- إذ أخرج وحده ثم قوّاه الله بأصحابه كما قوّى الحبة بما نبت فيها».¹⁸⁹

فسر الفراء هذه الآية بنقل قول المفسرين في مثل القرآن، و هو القول القديم الذي لم يحدّد فيه دور التشبيه في البيان، و لم توضع أصوله أو تفرد أركانه.

بينما نجده قد فهم دور التشبيه في التعبير عندما فسّر قوله تعالى ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾¹⁹⁰ بقوله: «أراد بالوردة الغرس، و الوردة تكون في الربيع إلى الصفرة أمل، فإذا اشتدّ البرد كانت وردية حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة أمل، فشبه تلون السماء بتلون الوردة، و شبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن و اختلاف ألوانه. و يقال إنّ الدهان الأديم الأحمر».¹⁹¹

إنّ تفسير الفراء للآية يدلّ على أنّه أجاد إدراك التشبيه بأقسامه، و عرف أنّه مركب هنا من قسمين أو صورتين متعاقبتين صورة السماء منشقة، و صورة الوردة ثمّ صورة الدهان. و الصورتان الأخيرتان «مركبتان لتوضيح وجه الشبه، و الفراء يوضح معنى المشبه به في هاتين الصورتين، فيوضح معنى الوردة و ينبه إلى وجه الشبه و هو أحوال تلونها، فهي في الربيع صفراء، و في الشتاء حمراء، ثم غبراء داكنة عند الذبول، و هذا التلون التدريجي من اللون الناصع إلى الداكن يشبه أيضا لون الدهن و قد عملت فيه النار فاشتعل بلون أصفر ثم بدت ألسنته محمرة إذ آذن بالانطفاء ثم يتحوّل إلى رماد داكن».¹⁹²

¹⁸⁹ - معاني القرآن-الفراء أبي زكريا- يحيى بن زياد- علم الكتب- ط3- 1973م: 70.

¹⁹⁰ -سورة الرحمن: 37.

¹⁹¹ - معاني القرآن: 70.

¹⁹² - أثر القرآن في تطور النقد العربي: 57.

يقول سعيد بن جبير¹⁹³ و قتادة¹⁹⁴: « المعنى فكانت حمراء، و قيل المعنى تصير في حمرة للوردة و جريان الدّهن، أي تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، و تصير مثل الدّهن لرقّتها و ذوبانها».¹⁹⁵

و فسّر الفراء آية ثالثة وضح فيها التشبيه مبيناً أركانه و هي قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْخَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾¹⁹⁶، حيث بدأ بتفسير الغريب أولاً ثم وضح العلاقة بين المشبّه و المشبّه به و وجه الشّبّه فقال: «... و السّفَر واحد الأسفار، و هي الكتب العظام، شبّه اليهود و من لم يسلم -إذ لم ينتفعوا بالتوراة و الإنجيل و هما دليلا على النبي -صلى الله عليه و سلم- بالخمّار الذي يحمل كتب العلم و لا يدري ما عليه».¹⁹⁷

إنّ الفراء قد حاول فهم التشبيه لكن محاولته تلك « يعوزها الدقّة لأنّها محاولة مادية أغفلت الجانب النفسي، و هو المدار الذي يدور حوله التشبيه في الآيات، فالتشبيه الأوّل رسم صورة نفسية للنبي و الصحابة في موقف من مواقف الشدّة و الأذى لها ظلال و ألوان تنسجم كلّ الانسجام مع الموقف كلّ... و صورة التشبيه الثانية ترسم لوحة لمنظر من مناظر يوم القيامة، يثير الذعر و الهلع، فهناك سماء تنشقّ و تتصدّع، و هناك لون أحمر مزعج، و هناك دهن يجري، و تلك عناصر من عناصر الصورة التي توحى بالخوف و القلق و معاودة النّفس من الكفّار في شأن الإيمان بالله، و التصديق بنبوّة النبي».¹⁹⁸

¹⁹³ - سعيد بن جبير الأسدي الكوفي، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس و بن عمر - ولد سنة 45هـ/665م و قتلته الحجاج بواسط سنة 95هـ/714م. قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيداً و ما على وجه الأرض أحد إلا و هو مفتقر إلى علمه. ينظر: الأعلام- قاموس تراجم- خير الدين الزركلي- دار العلم للملايين- بيروت- لبنان- ط7- 1986م: 145/3.

¹⁹⁴ - قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري- مفسر حافظ ضريح أكمه- ولد سنة 61هـ/680م و توفي سنة 118هـ/736م. قال الإمام أحمد بن حنبل عنه: قتادة أحفظ أهل البصرة: 189/5.

¹⁹⁵ - الجامع لأحكام القرآن- للقرطبي: 115/9.

¹⁹⁶ - سورة الجمعة: 05.

¹⁹⁷ - أثر القرآن في تطور النقد العربي: 56.

¹⁹⁸ - بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ- دراسة تاريخية فنية مقارنة- فتحي أحمد عامر- منشأة المعارف بالاسكندرية- ط1:

أمّا الصورة الثالثة فيرسم موقفا من مواقف الجهل، «فالجاهل بالتوراة حيث لم يعمل بما جاء فيها من إثبات نبوة النبي-صلى الله عليه و سلم- و الإيمان برسالته، و العالم الذي يحمل زاد العلم الكثير بين جوانبه، و في قلبه و لا يعمل شيئا يفيد نفسه و مجتمعه و الآخرين بعلمه، كل ذلك حمار بليد الحسّ، يسام الخسف و الهوان، فلا يتأثر، فإذا حمل بعد هذه الجبلّة التي ركبت فيها أوعية العلوم فكيف يفيد منها، و ما السبيل لتأثره بها». 199

ثالثا: التشبيه عند أبي عبيدة (ص 209):

استخدم أبو عبيدة بعض المصطلحات البلاغية التي تتصل بعلم البيان في كتابه المشهور "مجاز القرآن" من بينها التشبيه. و يجدر بنا أن ننوّه في هذا المقام أن كتابه هذا ألّف بسبب مسألة تتعلق بالتشبيه - كما سبق الذكر - حيث أنه « كان في مجلس الفضل بن الربيع، فقال له ابراهيم بن اسماعيل الكاتب: قد سألت مسألة! أفأذن لي أن أعرفك إيّاها؟ فقال أبو عبيدة: هات، قال ابراهيم: قال الله عزّ و جلّ: ﴿و طَلَعَهَا كَأَنَّ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ﴾²⁰⁰. و إنّما يقع الوعد و الإيعاد بما عرف مثله، و هذا لم يعرف، فقال أبو عبيدة: إنّما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم. أما سمعت قول امرئ القيس²⁰¹:

أَيَقْتُلُنِي وَ الْمَشْرِئُ مُضَاجِعِي *** وَ مَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنِّيَابِ أَعْوَالِ

و هم لم يروا الغول قط، و لكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به! فاستحسن الفضل ذلك، و استحسّنه السائل». 202

199- بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ: 23.

200-سورة الصافات: 65.

201- ديوان امرئ القيس: 142.

202-معجم الأدباء: 159/19.

و لقد وردت كلمة التشبيه في كتابه "مجاز القرآن" و لكنّها « لا تعدو المباحث المتعلقة بها بعض الإشارات المتفرقة، يكتفي المؤلف بذكر الوجه مجرداً من كلّ دراسة لأسسه و أبعاده الفنيّة، بل إنّنا لا نصادف تعريفاً له أو حديثاً عن أقسامه و أنواعه».²⁰³

و لقد قرنه تارة بمصطلح "الكناية" و أخرى بمصطلح "التمثيل" أو المثل. حيث فسّر قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ﴾²⁰⁴ بقوله: «كناية و تشبيه»²⁰⁵. و واضح أن الآية صورة من صور التشبيه التي أطلق عليه البلاغيون اسم التشبيه البليغ، و هو الذي حذف منه وجه الشبه و أداة التشبيه.

بينما فسّر قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾²⁰⁶ بقوله: «مجاز تمثيل لأن ما بناه على التقوى أثبت أساساً من البناء الذي بنوه على الكفر و النفاق، و هو على شفا جرف، و هو ما يجرف من سيول الأودية فلا يثبت البناء عليه».²⁰⁷

و بهذا فإن الصورة الظاهرة أكثر من غيرها هي الصورة المركبة، فقد ذكرها بمصطلحها "التمثيل" و حاول أن يشرحها و نتيجة لهذا الشرح يمكن أن نقول أن أبا عبيدة عرّف التشبيه و التمثيل على أنّهما «لونين من ألوان التعبير، و لم يهتم في الآية بكلمة "هائر" وحدها بل اهتم بالصورة البيانية بتمامها. و فهمه للصورة البيانية بوجه عام لا يتعدى الفهم اللغوي، فهو يتعرض لكل الفنون البيانية المتعلقة بالأسلوب، و يعتبرها من المجاز اللغوي».²⁰⁸

و إذا كان أبو عبيدة لم يتوسّع في تفصيل البحوث البيانية-منها التشبيه- فلأنه «ألّفه في وقت مبكر نسبياً، و كان عام ثمانية و ثمانين و مائة من الهجرة النبوية. و يعتبر

²⁰³ - التفكير البلاغي عند العرب: 92.

²⁰⁴ - سورة البقرة: 223.

²⁰⁵ - مجاز القرآن- أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي- تحقيق محمد فؤاد سركين- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط2-1981:

229.

²⁰⁶ - سورة التوبة: 109.

²⁰⁷ - مجاز القرآن: 269.

²⁰⁸ - أثر القرآن في تطور النقد العربي: 47.

هذا الكتاب مرحلة أولية من مراحل الكشف عن إعجاز القرآن و بلاغته، كما يعتبر مرجعا لكثير من الدراسات اللغوية و الأدبية التي تلت».²⁰⁹

بالإضافة إلى ذلك فهو عمل خطير ينم عن وعي مؤلفه بقضايا جوهريّة في الدراسات البلاغية تتصل بمستويات اللغة، و خطوة هامة في التأليف و التصنيف لن نلاحظها عند من جاء قبله أو عاصره كسيبويه و الفراء.

و تعدّ مساهمة أبي عبيدة في مسألة التشبيه، أهمّ ما وصلنا عند هذه الفترة خاصة إذا تفحصنا كتابه الموسوم "النقائض بين جرير و الفرزدق" الذي على الرغم من خلوه من دراسة نظرية لقضية التشبيه، إذ منهجه الأدبي اللغوي التطبيقي لا يسمح بذلك إلاّ أنّه احتوى على مجموعة من الإشارات الهامة تكوّن متى جمعت النواة الأولى لهذا المبحث²¹⁰.

تعرّض أبو عبيدة في هذا الكتاب لطرفي التشبيه و وجه الشبه بل تجاوز ذلك إلى الحديث عن المعنى الكامن وراء التشبيه من ذلك تعليقه على بيت « البعيث:

فَأَلْقَى عَصَا طَلْحٍ وَ نَعْلًا كَأَنَّهَا *** جَنَاحُ سُمَانِي صَدْرُهَا قَدْ تَحَدَّمَا*

بقوله: "يريد أنه راعٍ و أنّ سلاحه عصا، و شبه نعله بجناح سماني في دقتها و صغرهما، يقول إنّه غير تام الخلق".²¹¹

كما تحدّث أيضا عما سمّي فيما بعد التشبيه المقيد بالصّفة أو تشبيه التمثيل الذي يقوم على التقريب بين صورتين و ذلك حين «علّق على بيت الفرزدق:

يَمْشُونَ فِي حَلْقِ الْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ *** جُرْبُ الْجَمَالِ بِهَا الْكُحَيْلُ الْمَشْعَلُ

²⁰⁹ - التعبير الفني في القرآن- لد: بكري شيخ أمين- دار العلم للملايين- بيروت- لبنان- 6- 2001م: 150.

²¹⁰ - التفكير البلاغي: 124.

* - سمانى: طائر. لسان العرب: 220/13.

²¹¹ - التفكير البلاغي: 124.

قائلا: "الكحيل القطران، و حلق الحديد الدروع، شبه الرجال لعظمتهم و لون الحديد عليهم بالجمال المهنوة بالقطران"²¹².

فالفرزدق شبه الرجال في دروع الزرد بالجمال الجرب، و هذا من التشبيه البعيد، لأنه إن أراد السواد فلا مقارنة بينهما في اللون لأن لون الحديد أبيض، و من أجل ذلك سميت السيوف بالبيض.

وأما: التشبيه عند الجاحظ (ص 255):

ما كاد القرن الثالث يأخذ في المضي حتى ظهر الجاحظ و قد تجرّد لدرس شؤون البيان و البلاغة و وضع كتابيه "البيان و التبيين" و "الحيوان" اللذين يعتبران من أشهر مؤلفات الجاحظ إطلاقا و أنطقها حجة لثقافة صاحبها الواسعة و تعدّد اهتماماته لكثرة مواهبه، فإليهما يدين شهرته العلمية و منهجيته العقلية.

إلاّ أنّه رغم غزارة المادّة المتجمعة لديه لم يوفق دائما في سياستها و ترويضها و « لم يحض البحث البلاغي بكتاب مستقل يجمع مسائله و يبيّنها، و اكتفى بإدراجه في ثنايا مؤلفاته بنسب متفاوتة تتحكم فيها ضرورات البحث و محركاته، فجاء في صورة ملاحظات و تعليقات متناثرة لا يوحد بينها أحيانا، إلاّ السياق الأدبي العام و اهتمام المؤلف بأفانين القول و صوره و طرقه و مردّد ذلك أساسا أن التفكير البلاغي... كان إلى عهده في طور نشأته الأولى لم يشتدّ منه إلاّ النزر القليل».²¹³

و كان حظّ التشبيه كحظّ كل الفنون البلاغية، إذ ورد عنده منشورا بين دفتي كتابيه يجد الباحث عنه عناءً ليصل إليه و يتلمّسه.

و حديث الجاحظ عن التشبيه في كتابه الحيوان « أغنى و أغزر من حديثه عنها في "البيان و التبيين"، ذلك لأنّه عرض فيه لتأويل بعض آي الذكر الحكيم رادّا عن

²¹²-التفكير البلاغي: 125.

²¹³- نفسه: 144.

مطاعن الملاحظة و ما كانوا يثيرون من شبهات حولها، بسبب جهلهم بوجوه التعبير الأدبي في العربية و دلالات صوره البلاغية».²¹⁴

و الجاحظ معتزلي المذهب لذا نظر إلى التشبيه على أنه « مجرد صور ذهنية للتعبير عن المعنى المراد، و توضيحه في الأذهان، في قالب يمكن إدراكه بالحس، و ذلك بتشكيله في صور المدركات الحسية، و هذا كله - كما يراه الجاحظ - منطبق على صفات الله تعالى، و اليوم الآخر، و مشاهد القيامة، و الجنة و النار، و صفات العذاب و النعيم المختلفة، و إذا كان القدماء من أمثال "الفراء" قد خرّجوا معناها تخريجا لغويا، لم يوضح الصور البيانية ».²¹⁵

فإن الجاحظ يميل في بسط الصورة إلى التجريد « فيبتعد بالصورة الفنية عن الشكل الظاهري، بما له من دلالات مادية، إلى المعنى العام المقصود وراء الشكل أو الصورة. و أكثر ما يظهر هذا الأمر، فيما جاء في القرآن الكريم من أعداد، فالعدد - في نظره - لا يحمل في القرآن معنى التحديد الكمي، الذي يدلّ على لفظ: السبع، أو العشر، أو التسعة عشر، إنّما هذا العدد يقصد منه الإشارة إلى التعدد و الكثرة ».²¹⁶

إن ثقافة الجاحظ الواسعة و قدرته على الفهم و الاستيعاب و التحليل و التدليل جعلته يقف طويلا أمام تشبيهات القرآن الكريم، من ذلك وقوفه أمام التشبيه الذي اعترض عليه بعض المعترضين، و هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَ الشَّيْطَانَ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾²¹⁷ فقال فيه: « فزعموا أنّ هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام، لأنه قال: ﴿وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾

²¹⁴ - البلاغة تطور و تاريخ- شوقي ضيف- دار المعارف- ط7- 1965: 55.

²¹⁵ - المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها و تطورها حتى القرن السابع الهجري- أحمد جمال العمري- مكتبة الخانجي- القاهرة- ط1- 1410هـ/1990م: 98.

²¹⁶ - نفسه: 98.

²¹⁷ - سورة الأعراف: 175-176.

فما يشبه حال من أعطى شيئاً فلم يقبله - و لم يذكر غير ذلك - بالكلب الذي إن حملت عليه نبج و ولّى ذاهباً، و إن تركته شدّ عليك و نبج. مع أنّ قوله يلهث لم يقع في موضعه، و إنّما يلهث الكلب من عطش شديد، و حرّ شديد، و من تعب، و أما النباح و الصياح فمن شيء آخر.

قلنا له: « إن قال: ﴿كَذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ فقد يستقيم أن يكون الراد لا يسمى مكذباً، و لا يقال لهم كذبوا إلاّ و قد كان ذلك منهم مراراً، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات و الأعاجيب، و البرهانات و الكرامات، في بدء حرصه عليها، و طلبه لها بالكلب في حرصه طلبه، فإنّ الكلب يعطي الجدّ و الجهد من نفسه في كلّ حالة من الحالات، و شبه رفضه و قذفه لها من يديه، و ردّه لها بعد الحرص عليها، و فرط الرغبة فيها بالكلب إذا رجع ينبج بعد إطرادك له، و واجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفسية، في وزن طلبها و الحرص عليها.

و الكلب إذا أتعب نفسه في شدّة النباح مقبلاً إليك و مدبراً عنك لهث و اعتراه عند التعب و العطش».²¹⁸

إنّ تحليل الجاحظ للتشبيه في الآية يدلّ على أنّه بذل جهداً في استخراج وجه الشبه و بين الغرض منه ليجعله سهلاً في تناول العقول فلا تكون لهم حجة على بيان القرآن و ما ادعى عليه من اضطراب في الصورة البيانية - كما ادعى من تولى الجاحظ الردّ عليه - ، و قد تنبّه إلى « دقّة القرآن في التشبيه بالخصائص المشهورة للمشبه به، و حاول - موفقاً - أن يكشف عن بعض ما وقع فيه الناس من غموض دعى إلى التساؤل عن وجه الشبه ».²¹⁹

و قد لاحظ بعض الباحثين في هذا المثال دلالة على معرفة العلماء في عصر الجاحظ للتشبيه و وجوهه و وجه الشبه و صورة تحققه في الشبه.

²¹⁸ - الحيوان: 17-16/2.
²¹⁹ - أثر القرآن في النقد العربي: 89/88.

و لقد تنبّه الجاحظ إلى الناحية النفسية في التشبيه فكشفها « في دقة محكمة فالمشبه هو الذي أوتي الآيات و الدلالات و البرهانات—و كان أكثر ما يكون حرصا عليها— فاتبعه الشيطان فانسلك منها— ففي الكلام تقديم و تأخير يدل عليه المقام، و معنى انسلخ تحول عنها بقهر و انتزاع و إرغام، فهو في حيرة من أمره، أيسلم نفسه للشيطان، و يخلد إلى الأرض، أم يعود سيرته الأولى حريصا على الحق و النور؟ ».²²⁰

كلّ تلك الملامح النفسيّة في صورة المشبه واضحة أبلغ الوضوح في صورة المشبه به، « فالكلب يطلب في حرص دائم على الطلب، لفرط الرغبة، و يبذل الجهد الجهد، ليصل إلى الغرض، فإذا قدّم له شيء نافع من طعام أو ماء أقبل في شغف، فإذا ردّ عنه أدبر في شغف للإقبال، و وقع في الحيرة، و نبج قليلا، و لهث كثيرا، مقبلا عليك، و مدبرا عنك، و كذلك من أدبر عن آيات الله على أنّ صورة المشبه به فيها من التحقير ما هو سمة من سمات الصورة في المشبه ».²²¹

و تعرّض للتشبيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيهِ أَطْلُ الْجَحِيمِ طَلْعَهَا كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ أكثر من مرّة. يقول في موضع: «... و ليس أن الناس رأوا شيطانا قط على صورة و لكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع الأمم استقباح جميع صور الشياطين، و استسماجه و كراهيته، و قد أجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك، رجع بالإيحاش و التنفير و بالإخافة و التقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين و الآخرين و عند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم، و هذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن. »²²²

و يضيف في موضع آخر: «فزعم ناس أنّ رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كرية، و المتكلمون لا يعرفون هذا التفسير، و قالوا ما عني إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجنّ و مردتهم، فقال أهل الطعن و الخلاف

²²⁰ - بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ: 47/46.

²²¹ - نفسه: 47/46.

²²² - الحيوان: 39/4.

ليس يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه و لا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق. و مخرج الكلام يدل على أنّ التخويف بتلك الصورة و التفزيع منها، و على أنّه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره، فكيف يكون الشأن كذلك و الناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صورته لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف، و نحن لم نعاينها، و لا صوّرها لنا صادق، على أنّ أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعان أهل الكتابين و حملة القرآن من المسلمين، و لم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك و لا يقفون عليه و لا يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيدا عاما؟.

قلنا: و إن كنّا نحن لم نر شيطانا قطّ و لا صور رؤوسها لنا صادق بيده، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين أحدهما أن يقولوا هو أقبح من الشيطان، و الوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير له، كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء، و المرأة الجميلة صماء و قرباء و خنساء و جرباء، و أشباه ذلك على جهة التطير له، ففي إجماع المسلمين و العرب، و كل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كلّ قبيح. ²²³»

لقد أدرك الجاحظ التشبيه المعنوي الموجود في الآية الكريمة واستطاع أن يفصل وجوه التشبيه و يعرف تصرف الأسلوب القرآني في المشبه به و وجه الشبه ينتزعه من غير مدرك بالحس اعتمادا على ثبوته في الإدراك عن طريق العادة و العرف و تناقل الناس له.

و قد أجاز الجاحظ مثل هذا التشبيه و بين وجهته، و ناقش آراء غيره في التشبيه من حيث ضرورة الاعتماد على الحس البصري لتصوير المعنى في الذهن. « و منذ ذلك العهد أو قبله بقليل، اهتمّ الناس بهذين النوعين من التشبيه و تابعوها في القرآن، و في

²²³ - الحيوان: 212/6.

البيان عامة، و دارت بحوث التشبيه في البلاغة حول هذه النقطة، و تفرعت من هذين النوعين أنواع أخرى».²²⁴

إنّ الجاحظ فهم الدور الذي يقوم به التشبيه في الآية و هو القصد إلى إثارة الوجدان عن طريق استدعاء الخيال لصورة قبيحة مفزعة و ما ينتهي إليه من إقرار الخوف و بث الفزع في قرارة النفس.

إنّ اللّغويين فسّروا الآية تفسيراً حسّياً في حين أن الجاحظ رفض ذلك، فهو يتفق و وجهة نظر أهل الظاهر في التفسير و يعارض وجهة أهل النظر من المتكلمين و المعتزلة . و قد فسّر أولئك -نقصد اللّغويين- رؤوس الشياطين « برؤوس نبات ينبت في اليمن، أو شجر كريحه المنظر، أو حيات قبيحة الشكل، و كلها مدلولات مادية لكلمة شيطان قد يكون لها أصل من الواقع، و قد تكون من ابتكار هؤلاء و هي على الحالين لا تبلغ في أثرها في النفس مبلغ صورة الشيطان التي تثب إلى الخيال تجمع كل سمات الفزع و القبح و إن تكن غير واضحة وضوح النبات و الشجر و الحيّات، و هذا الغموض يضفي عليها مزيداً من التخويف».²²⁵

تختلف أسماء الصورة البيانية -التشبيه- عند الجاحظ، فهي مرة باسم المثل و أخرى باسم البدل، و الاستعارة و المجاز، و يدرج هذه الأسماء متتابعة مرة فيقول: «... و يقولون أيضاً على المثل و على الاشتقاق و على التشبيه...».²²⁶

تناول الجاحظ أيضاً التشبيه في حديث الرسول(ص) حيث ذكر في باب **صفة بلاغة رسول الله(ص)** حديثاً هو: «الناس كلّهم سواءٌ كأَسنان المشط»²²⁷ و قارنه بقول الشاعر:

²²⁴ - أثر القرآن في النقد العربي: 90.

²²⁵ - نفسه: 91.

²²⁶ - الحيوان: 23/5.

²²⁷ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي عن الكتب الستة و عن مسند التارمي و موطأ مالك و مسند أحمد بن حنبل، ابتداءً ترتيبه و تنظيمه و نشره أ.ي. ونسك وي.ب. منسج. أتبع نشره ب.بروخمان. مطبعة بريل في مدينة لايدن- ط1- 1967: 229/6.

سَوَاءُ كَأَسْنَانِ الْحِمَارِ فَلَا تَرَى *** لِذِي شَيْبَةٍ مِنْهُمْ عَلَى نَاشِيٍّ فَضْلًا²²⁸

و قول شاعر آخر:

شَبَابُهُمْ وَ شَيْبُهُمْ سَوَاءٌ *** فَهُمْ فِي اللَّوْنِ أَسْنَانُ الْحِمَارِ²²⁹

فقال: «و إذا حصّلت تشبيه الشاعر و حقيقته، و تشبيه النبي-صلى الله عليه و سلم- و حقيقته علمت فضل ما بين الكلامين...فتفهّم -رحمك الله- قلة حروفه و كثرة معانيه».²³⁰

و أفاض الجاحظ في ذكر التشبيهات الواردة في أشعار العرب من ذلك ما ذكره في باب تشبيه الغيوم بالنعام، قال: «و توصف الغيوم المتراكمة بأن عليها نعاما، قال الشاعر:

كَأَنَّ الرَّبَابَ دُوَيْنَ السَّحَابِ *** نَعَامٌ تَعَلَّقَ بِالْأَرْجُلِ*

و قال آخر:

خَالِيٍّ لَا تَسْتَسْلِمَا وَ ادْعُوا الَّذِي *** لَهُ كُلُّ أَمْرٍ أَنْ يَصُوبَ رَبِيعٌ

حَيًّا لِلْبِلَادِ أَبْعَدَ الْمَحَلِّ أَهْلَهَا *** وَ فِي الْعَظْمِ شَيْءٌ فِي شَطَاهُ صُدُوعٌ*

بِمَنْتَضِكِ عَرِّ النَّشَاصِ كَأَنَّهَا *** جِبَالٌ عَلَيْهِنَّ النَّسُورُ وَفُوعٌ**²³¹

²²⁸ - البيان و التبيين- لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ- تحقيق. درويش جويدي- المكتبة العصرية صيدا- بيروت- 1422هـ/2001م- ط1: 245/2.

²²⁹ - نفسه: 246/2.

²³⁰ - نفسه: 246/2.

*- الرباب: سحاب أبيض. ينظر: لسان العرب: 402/1.

*- الحيا: الخصب. و المحل: الجذب و انقطاع المطر، و الشطى: عظيم لاصق بالركبة. ينظر: لسان العرب: 213/14- 514/10 – 617/11.

** - بمنتضك: و أصله البعير يحبو حبوا و لا يقدر على السير، النشاص، بالفتح: السحاب المرتفع بعض فوق بعض.

ينظر: لسان العرب: 499/10- 96/7.

²³¹ - الحيوان: 350/4.

و باب تشبيه مشي المرأة بمشي القطاة قال فيه: « و يشبه مشي المرأة إذا كانت سمينة غير خراجة طوافة بمشي القطاة* في القرمطة** و الدل*** ، و قال ابن ميادة:

إِذَا الطَّوَالِ سَدَوْنَ المِشْيَ فِي خَطَلٍ *** قَامَتْ تَرِيكَ قَوَامًا غَيْرَ ذِي أَوْدٍ*4

تَمْشِي كَكُذْرِيَّةٍ فِي الجَوْ قَارِدَةً *** تَهْدِي سُرُوبَ قَطَا يَشْرَبْنَ بِالثَّمَدِ*5

و قال جران العود:

فَلَمَّا رَأَيْنِ الصُّبْحَ يَا دَرْنَ ضَوْءَهُ *** رَسِيمَ قُطَا البَطْحَاءِ، أَوْهَنَّ أَقْطَفُ*6

و قال الكميت:

يَمْشِينَ مَشْيَ قُطَا البَطَاحِ تَأْوُدًا *** قَبَّ البُطُونِ رَوَاجِحَ الأَكْفَالِ*7 232

و في باب شعر في تشبيه الفرس الظليم، قال: « و ممّا يشبه به الفرس ممّا في الظليم، قول امرئ القيس بن حجر:

وَ خَدَّ أَسِيلٍ كَالْمِسْنِ وَ بَرَكَةٍ *** كَجَوْجُوِّ هَيْقٍ دَقُّهُ قَدْ تَمَوَّرًا*

*- القطاة: طائر معروف، سمي بذلك لثقل مشيه. ينظر: لسان العرب: 395/7.

** - القرمطة: تقارب الخطو. ينظر: لسان العرب: 377/7.

*** - الدل، بالفتح: السكينة و الوقار. ينظر: لسان العرب: 248/11.

*4- السدو: التذرع في المشي و اتساع الخطو- الأود: العوج. ينظر: لسان العرب: 211/14 - 75/3.

*5- الكدرى بالضم: ضرب من القطا قصار الأذنان- فاردة: منقطعة عن أخواتها، و ذلك لسرعتها، الثمد: الماء القليل.

ينظر: لسان العرب: 134/5 - 331/3 - 105/3.

*6- الرسيم: ضرب من السير سريع مؤثر في الأرض. أقطف: و هو تقارب الخطو. ينظر: لسان العرب: 246/12-

286/9.

*7- قب جميع قباء، و القيب: دقة الخصر و ضمور البطن. ينظر: لسان العرب: 658/1.

232- الحيوان: 576/5.

*- البركة بالكسر: الصدر، و الجؤجؤ: الصدر أيضا، و الهيق: الذكر من النعام، و الدف بالفتح: صفحة الجنب، تمور: سقط منه النسيل أو الريش. ينظر: لسان العرب: 397/10-42/1-370/10-104/9-186/5.

و قال عقبه بن سابق:

و لَهُ بَرْكَةٌ كَجَوْجُوِّ هَيْقٍ *** وَ لَبَانٌ مُخْرَجٌ بِالْخِضَابِ **

و قال أبو داود الإيادي:

يَمْشِي كَمَشِي نَعَامَتَيْنِ *** يُتَابِعَانِ أَشَقَّ شَاخِصٍ ***

و قال آخر:

كَأَنَّ حَمَاتَهُ كُرْدُوسُ فَحَلٍ *** مُقْلَصَةٍ عَلَى سَاقِي ظَلِيمٍ^{4*}

و قال أبو داود الإيادي:

كَالسَّيِّدِ مَا اسْتَقْبَلَتْهُ وَ إِذَا *** وَلَّى تَقُولُ مُلْمَلَمٌ ضَرْبُ^{5*}

لَا مُمَّ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ وَ مَشَى *** مُتَتَابِعًا مَا خَانَهُ عَقْبُ^{6*}

يَمْشِي كَمَشِي نَعَامَةٍ تَبَعْتُ *** أُخْرَى إِذَا مَا رَاعَهَا خَطْبُ²³³

و في باب شعري التشبيه ذكر: « و أنشدنا للأحمر:

بَأَقْبَ مُنْطَلَقِ اللَّبَانِ كَأَنَّهُ *** سَيِّدَ تَنْصَلِّ مِنْ جُحُورِ سَعَالَى *

**-البان بالفتح: وسط الصدر، مدرج بالخصاب: ملطخ بالدم. ينظر: لسان العرب: 227/2-373/13.
***-أشق: يعني ظلما واسع ما بين الرجلين، و الشاخص: المرتفع. ينظر: لسان العرب: 45/7-184/10.
4*-الحماة: عضلة الساق، و الكردوس بالضم: واحد الكراديس، و هو رؤوس العظام. ينظر: لسان العرب: 198/14-195/6.

5- المللم: المجتمع المدور. الضرب: الخفيف اللحم. ينظر: لسان العرب: 549/1-550/12.

* 6- اللأم: الشديد. ينظر: لسان العرب: 490/12.

233- الحيوان: 334/4.

*- تنصل: خرج منها، السعلاة: الغول. سيد: الذئب. ينظر: لسان العرب: 664/11-664/11-231/3.

و قال آخر:

أُرَاقِبُ لَمَحًا مِنْ سَهِيلٍ كَأَنَّهُ *** إِذَا مَا بَدَا مِنْ دُجِيَّةِ اللَّيْلِ يَطْرُفُ**

و قالوا قال خلف الأحمر: لم أر أجمع من بيت لامرئ القيس، و هو قوله:

أَفَادَ وَ جَادَ وَ سَادَ وَ زَادَ *** وَ قَادَ وَ ذَادَ وَ عَادَ وَ أَفْضَلَ

و لا أجمع من قوله:

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَ سَاقًا نَعَامَةٍ *** وَ إِرْحَاءُ سِرْحَانٍ وَ تَقْرِبُ تَتْفُلٍ ***²³⁴»

لقد شبه امرؤ القيس في البيت الأخير أربعة أشياء بأربعة أشياء حيث شبه خاصرتي الفرس بخاصرتي الظبي، و شبه ساقيه بساقي النعامة، و شبه إرخاءه، أي مدّ عنقه في استرسال عند السير بإرخاء السرحان أي الذئب، و ليس دابة بأحسن إرخاء منه، و شبه تقريبه، أي جمع يديه و وثبه عند الجري بتقريب التتفل، أي ولد الثعلب و المعنى يوحي بأنه أراد الثعلب بعينه مشبها به.

و باب شعر في تشبيه الفرس بضروب الحيوان ليس من بينها الكلب.
قال الأعشى²³⁵:

أَمَّا إِذَا اسْتَقْبَلْتُهُ فَكَأَنَّهُ *** جَذَعُ سَمَا فَوْقَ النَّخِيلِ مُشَدَّبٌ*
إِذَا تَصَفَّحَهُ الْفَوَارِسُ مُعْرِضًا *** فَتَقُولُ سِرْحَانُ الْغَضَا الْمِتَصَوِّبُ**.

** - سهيل: نجم. ينظر: لسان العرب: 347/11.

***-أيطلا: خاصرة. إرخاء: أن تخلي الفرس و شهوته في العدو. سرحان: من أسماء الذئب. تقريب تتفل: الثعلب و قيل جروه. ينظر: لسان العرب: 18/11 - 316/14 - 481/2 - 77/11.

²³⁴ - الحيوان - 53-52/3.

²³⁵ - ديوان الأعشى - دار صادر بيروت - ط1 - 1414هـ/1994م: 11.

* - مشدّب: مقشّر. ينظر: لسان العرب: 486/1.

** - تصفّح: نظر إليه. الغضا: نبات الرمل. المتصوب: الانحدار. ينظر: لسان العرب: 514/2 - 128/15 - 534/1.

بالإضافة إلى باب آخر سمي فيه التشبيه باسم البدل و أعطى به تعريفا هو باب التشبيه بالكباش و التفاؤل بها: « و إذا وصفوا أعذاق النخل العظام قالوا: كأثما كباش، قال الشاعر:

كَأَنَّ كِبَاشَ السَّاجِيَةِ عَلَّقَتْ *** دُؤَيْنَ الْخَوَافِي أَوْ غَرَائِرَ تَاجِرٍ

لكان ذلك مما يجوز على التشبيه و البدل، و إن قام الشيء مقام الشيء أو مقام صاحبه، فمن عادة العرب أن تشبه به في حالات كثيرة». ²³⁶

كما تعرّض لتشبيهات وردت في كلام العرب منها:

« قال ابن عباس — و ذكر عمر بن الخطاب فقال: — "كان كالطائر الحذر"، فشبهه عزم عمر و تخوفه من الخطأ، و حذره من الخدع بالطائر». ²³⁷

و أيضا شبه بعض الحيوان البري بنظيره البحري فقال: «و يزعمون أن ما كان في البرّ من الضبّ و الورل و الحرباء، و الحلکاء، و شحمة الأرض، و الوزغ و العضاء مثل الذي في البحر من السلحفاة و الرقّ، و التمساح، و الضفدع، و أن تلك الأجناس البرية و إن اختلفت في أمورها فإنّها قد تتشابه في أمور، و أن هذه الأجناس البحرية من تلك، ككلب الماء من كلب الأرض». ²³⁸

و علّق على زعم الناس أن السمك يلد بقوله: « و قد زعم ناس من أهل العلم أن السمك كله يلد، و أنّهم إنّما سمّوا ذلك [الحبّ] بيضا على التشبيه و التمثيل». ²³⁹

و سمّى الجاحظ بابا في كتابه "البيان و التبيين": باب من الشعر فيه تشبيه الشيء بشيء استهله بأبيات فيها تشبيه البرق بنبض العرق و احتساء الطير:

²³⁶ - الحيوان: 473/5.

²³⁷ - نفسه: 58/7.

²³⁸ - نفسه: 144/4.

²³⁹ - نفسه: 127/7.

» قال الشاعر:

بَدَ الْبَرْقُ مِنْ نَحْوِ الْحِجَازِ فَشَاقِنِي *** وَكُلُّ حِجَازِيٍّ لَهُ الْبَرْقُ شَائِقُ*

سَرَى مِثْلَ نَبْضِ الْعِرْقِ وَاللَّيْلُ دُونَهُ *** وَاعْلَامُ أُبْلَى كُلِّهَا وَالْأَسَالِقُ*

و قال آخر:

أَرِقْتُ لِرَيْقِ آخِرِ اللَّيْلِ يَلْمَعُ *** سَرَى دَائِبًا فِيهَا يَهْبُ وَ يَهْجَعُ***

سَرَى كَاخْتِسَاءِ الطَّيْرِ وَاللَّيْلُ ضَارِبٌ *** بِأَزْوَاقِهِ وَالصُّبْحُ قَدْ كَادَ يَسْطَعُ*⁴.²⁴⁰

و انتقل الجاحظ بعد ذلك مباشرة إلى سرد أخبار تدور كلها حول موضوع واحد هو الأدب، و هذا يدلّ على أنّ « عملية التشبيه عند الجاحظ تجري على غرار عملية الأدب. فكما أن المؤدب يسعى إلى سبك أخلاق مؤدبه و طبائعه بصبّها في مثال يتصوره مسبقا و يسهر على إحلاله فيه و إدماجه به، فكذلك المتكلم في التشبيه يحاول إلحاق المشبه بالمشبه به بإعطائه صفاته و جعله على صورته و مثاله. و عملية التأديب تعدّ تامة عندما ينصهر الشخص في النموذج و يتّحد به اتحادا كاملا، كذلك يعد التشبيه تاما إذا ما اتحد المشبه بالمشبه به اتحادا يجعل الثاني على الأول و عنوانا يؤدي بسرعة إليه».²⁴¹

*-شاقني: من الشوق أي هاجني. ينظر: لسان العرب: 192/10.

** - سرى: مشى ليلا. نبض: حركة. الأسالق: الماء بين الصمدين من الأرض. ينظر: لسان العرب: 381/14-161/10-235/7.

***-دائبا: ملازما. ينظر: لسان العرب: 368/1.

*4-احتساء الطير: شربه الماء. أزواقه: حسنه. ينظر لسان العرب: 150/10-176/14.

²⁴⁰- البيان و التبیین: 391/2.

²⁴¹- النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبیین- لمحمد الصغير بنّاني- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ط1- 1994: 302.

و الملفت للنظر أن الجاحظ أنهى المرحلة الأولى من الباب برواية قصّة هامة نسوقها بنصها، لأنها تعطينا فكرة أولى عن نظريته في التشبيه: « قال أبو الحسن: بينما هشام يسير، و معه أعرابيّ إذ انتهى إلى ميل عليه كتاب فقال للأعرابي: "أنظر أيّ ميل هذا" فنظر ثم رجع إليه فقال: "عليه محجن و حلقة و ثلاثة كأطباء الكلبة و رأس كأنه رأس قطاة". فعرّفه هشام بصورة الهجاء و لم يعرفه الأعرابي و كان عليه "خمسة" و هي من نوادر الأعراب».²⁴²

فما هو السبب الذي جعله يسوق هذا الخبر في هذا الموضع بالذات؟
ربّما كان ذلك للاستدلال على وظيفة التشبيه و طاقته التصويرية.

و لقد ختم الجاحظ هذا الباب بأمثلة خصصها للتشبيه كقوله: « و قال العتّابي: "الشيب تاريخ الكتاب" »²⁴³ أي كتاريخ الكتاب، و « قال النُميري: "الشيب عنوان الكبير" »²⁴⁴ أي كعنوان للكبر فالجاحظ « يرى أن العلاقة التي تجمع بين الشيب و عمر الإنسان هي ذات العلاقة التي تجمع بين الكتاب و تاريخه أي أنها علاقة عضوية يلخص فيها الأول مراحل الحياة و الثاني مراحل التأليف».²⁴⁵

و تحدّث عن التشبيه في باب آخر يضاف إلى باب الخطب و إلى القول في تلخيص المعاني و الخروج من الأمر المشبه بغيره، فذكر فيه بيتا من الشعر عدّه البلاغيون القدماء كشاهد في تشبيه التمثيل و هو :

فَقَتَلْنَا بِقَتْلَانَا مِنَ الْقَوْمِ مِثْلَهُمْ *** كِرَامًا وَ لَمْ نَأْخُذْ بِهِمْ حَشَفَ الثَّمَرِ²⁴⁶

و عرّف العقل بعد ذكر البيت مباشرة فقال « هو الإصابة بالظنون و معرفة ما لم يكن بما قد كان»²⁴⁷، و تعريفه للعقل بهذا الشكل « يلقي ضوءا جديدا على مفهوم

²⁴² - البيان و التبيين: 393.

²⁴³ - نفسه: 393/3.

²⁴⁴ - نفسه: 393.

²⁴⁵ - النظريات اللسانية: 303.

²⁴⁶ - البيان و التبيين: 625/3.

²⁴⁷ - البيان و التبيين: 626/3.

التشبيه عند الجاحظ إذ المقصود منه استعمال الخيال كأداة للتفكير و الاكتشاف. و قوله العقل معرفة ما لم يكن بما قد ك ان هو تحليل لعملية التشبيه و وصف لساني لطريقة إجرائها».²⁴⁸

و يعد الجاحظ أوّل من أرسى دعائم فكرة العلاقة بين المشبه و المشبه به حيث أنه كان يرى أن التشبيه « لا يلغي الحدود بين الأشياء أو الكائنات بل يظل محافظا على تمايزها و انفصالها»²⁴⁹. يقول: «و قد يشبه الشعراء و البلغاء الإنسان بالقمر و الشمس، و الغيث و البحر، و بالأسد و السيف، و بالحية و النجم، و لا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدّ الإنسان. و إذا ذموا قالوا: هو الكلب و الخنزير، و هو القرد و الحمار، و هو الثور، و هو التيس، و هو الذيب، و هو العقرب، و هو الجعل، و هو القرنبي، ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس، و لا أسمائهم و لا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود و هذه الأسماء».²⁵⁰

أي أنّ ما ينطبق على الإنسان ينطبق بالضرورة على باقي الكائنات و الأشياء و أن التشبيه يظل محافظا بالتمايز على الاستقلال. «و لعلّ في جمع الجاحظ بين العلماء و الشعراء في هذا المقام، فضلا عن هذه النظرة الصارمة للتشبيه، ما يشي بفهمه المنطقي لطبيعة العلاقة التي يقوم عليها التشبيه، و ما يشي أيضا بالتأثير المبكر للمتكلمين في تحديد مفهوم التشبيه، و الانحراف به عن طبيعته الأصلية».²⁵¹

²⁴⁸-النظريات اللسانية و البلاغية: 305.

²⁴⁹-الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي- لجابر أحمد عصفور- دار الثقافة للطباعة و النشر- القاهرة- ط1- د.ت:

211.

²⁵⁰- الحيوان: 211/1.

²⁵¹- الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي: 211.

خامساً: التشبيه عند ابن قتيبة (ت 276هـ):

قام ابن قتيبة في منتصف القرن الثالث للهجرة على رأس أهل السنة المناضلين عن مذهبهم ضدّ تيارات الكلام و الاعتزال، فقد كان إماماً من أئمتهم البارزين شبّهت مكانه بينهم بمكانة الجاحظ بين المعتزلة.

و كانت ثقافته عربية تقوم على القرآن و الحديث و اللّغة و النحو و الأدب شعره و نثره بالإضافة إلى إطلاعه على ثقافات أخرى يونانية و فارسية و هندية.

كل هذه الثقافات جعلته كثير التأليف متنوع المشاغل ذا نظر موسوعي.

و رغم كثرة مؤلفاته إلّا أنّه لم يترك مؤلفاً صريح الانتساب إلى المبحث البلاغي، لكن هذا لا يعني أنّه أغفله بل إنّ آثاره لا تخلو من الإشارات البلاغية و الأحكام الفنيّة التي تمس صنوف القول و أفانين التعبير من بينها التشبيه.

فهو —أي التشبيه— و إن كان ضئيل التواتر في مصنفه "تأويل مشكل القرآن" بسبب خوفه على عقيدته أن يطعن فيها، نجده في كتب أخرى يولي له أهميّة كبيرة إذ جعله من مزايا الشعر الفاضل الذي يختار و يحفظ: و ليس كلّ الشعر يختار و يحفظ على جودة اللفظ و المعنى و لكنّه قد يختار و يحفظ على أسباب الإصابة في التشبيه كقول القائل في وصف القمر²⁵²:

بَدَأَ نَبَاً وَ ابْنُ اللَّيَالِي كَأَنَّهُ *** حُسَامٌ جَعَلَتْ عَنْهُ الْفُيُوءُ صَقِيلٌ*
فَمَازَلْتُ أَفْنِي كُلَّ يَوْمٍ شَبَابَهُ *** إِلَى أَنْ أَتَتَكَ الْعَيْسُ وَ هُوَ ضَعِيلٌ**.

و يؤكّد لنا أنّ النقاد بنوا أحكامهم تجاه الشعر على أساس التشبيه و فاضلوا بين الشعراء و سبقهم إلى ذلك، فذو الرّمة عدّ من المتقدمين لأنّه « أحسن الناس تشبيهاً ».²⁵³

²⁵² - الشعر و الشعراء- لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة- قدم له و راجعه حسن تميم و محمد عبد المنعم العريان- دار إحياء العلوم- بيروت- ط5- 1414هـ/1994م: 37.

*- صقيل: السيف. ينظر: لسان العرب: 380/11.

** -العيس: إبل تضرب إلى الصفرة. ينظر: لسان العرب: 152/6.

²⁵³ - الشعر و الشعراء: 362.

ففي كتابه "الشعر و الشعراء" نجد الصورة الأكثر تواترا هي التشبيه « و ليس في الأمر غرابة فهو أكثر الأساليب انتشارا في الشعر العربي و أكثر الأنواع البلاغية أهمية بالنسبة إلى الناقد القديم».²⁵⁴

و من التشبيهات التي تناولها و علّق عليها بيت امرئ القيس المشهور²⁵⁵:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَ يَابِسًا *** لَدَى وَكْرِهَا الْعُتَابُ وَ الْحَشْفُ الْبَالِي

عدّ ابن قتيبة هذا البيت من التشبيهات الحسنة حيث قال: « شَبَّهَ شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ، وَ أَحْسَنَ التَّشْبِيهَ ».²⁵⁶

و يوظف ابن قتيبة التشبيه لتسجيل جودة الشعر، معتمداً في ذلك على إبراز مفهوم الابتداع أي البديع الذي كان متعارفاً عليه آنئذ « و هو السبق إلى الوجه فيكون المصطلح جامعاً لمعنيين، السبق من جهة، و الوجه البلاغي مطلقاً من جهة أخرى ».²⁵⁷

و لقد أورد نصوصاً تشهد لذلك منها قوله: « و قد سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها و استحسناها العرب و اتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه في الديار و رقة النسيب و قرب المأخذ ».²⁵⁸

و قال أبو عبيدة فيه: « هو أوّل من قيّد الأوابد، يعني في قوله في وصف الفرس قيد الأوابد، فتبعه الناس على ذلك. و قال غيره هو أوّل من شَبَّهَ الثَّغْرَ في لونه بشوك السيّال فقال*:

مَنَابِتُهُ مِثْلُ السُّدُوسِ وَ لَوْنُهُ *** كَشَوْكِ السَّيَالِ وَ هُوَ عَذْبٌ يَفِيضُ**

²⁵⁴ - التفكير البلاغي عند العرب: 319.

²⁵⁵ - ديوان امرئ القيس: 145.

²⁵⁶ - الشعر و الشعراء: 70.

²⁵⁷ - التفكير البلاغي عند العرب: 326.

²⁵⁸ - الشعر و الشعراء: 55.

*- و البيت غير موجود في الديوان.

** - السدوس: اسم جبل. السيال: شوك أبيض. ينظر: لسان العرب: 105/6-252/11.

فاتبعه الناس. و أول من قال فعادى عدأ فاتبعه الناس، و أول من شبّه الحمار بمقلأ الوليد... و شبّه الطلل بوحى الزبور فى العسب و الفرس بابس الحلب».²⁵⁹
و لا يفرق ابن قتبية بين التشبيه و التمثيل و يعتبرهما شيئاً واحداً، و ذلك عندما يحلل قول أبى نواس²⁶⁰ واصفا الديار:

كَأَنَّهَا إِذَا خَرَسَتْ جَارِمٌ *** بَيْنَ ذَوِي تَفْنِيدِهِ مُطَرِّقٌ*

« شبه ما لا ينطق أبداً فى السكوت بما قد ينطق فى حال، و إنما كان يجب أن يشبّه الجارم إذا عدلوه فسكت و أطرق و انقطعت حجته بالدار، و إنما هذا مثل قائل قال مات القوم حتى كأنهم نيام، و الصواب أن يقول نام القوم حتى كأنهم موتى، و نحوه قول الأحمر:

كَأَنَّ نِيرَانَهُمْ مِنْ فَوْقِ حِصْنِهِمْ *** مُعْصَفَرَاتٌ عَلَى أَرْسَانِ قَصَارٍ*

و إنما ينبغي أن يقول كأن المعصفرات نيران».²⁶¹

و يشير ابن قتبية إلى ما أسماء البلاغون بالتشبيهات العقم، و العقمى من الكلام الغامض، و هى الأبيات التى لم يسبق أصحابها إليها و لا تعدى أحد بعدهم عليها، و اشتقاقها فيما ذكر من الريح العقيم و هى التى لا تلقح شجرة و لا تنتج ثمرة:
و مما سبق إليه عنتره* و لم يناع فيه قوله:

وَ خَلَا الدُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ *** غَرَادًا كَفَعَلَ الشَّارِبِ الْمَتَرِّمِ**

²⁵⁹ - الشعر و الشعراء : 70.

²⁶⁰ - البيت غير موجود فى الديوان.

* - جارم: الجاني. تفنيده: عجزه و ضعفه. مطرق: كثير السكون. ينظر لسان العرب: 219/10-338/3-91/12.

* - أرسان: الحبال. قصار: المحور من الثياب. ينظر: لسان العرب: 104/5-180/13.

²⁶¹ - الشعر و الشعراء: 547.

* - البيتين غير موجودين فى الديوان.

** - غرادا: ج الكمة. ينظر: لسان العرب: 325/3.

هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ *** فَعَلُ الْمَكِبِّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ ***

و يستفيض ابن قتيبة في شرح الصورة البيانية التي أشكل فهمها على بعض النقاد عندما قرؤوا بيت أبي نواس²⁶² الذي يقول فيه:

لَا كَرْمُهَا مِمَّا يُذَالُ وَلَا *** فُتِلَتْ مَرَائِرُهَا عَلَى عَجَمٍ *

يقول في ذلك: « فَإِنَّهُ أَشْكَلُ مَعْنَاهُ، وَ الَّذِي عِنْدِي فِيهِ أَنَّهُ وَصَفَ الْخَمْرَ بِالصَّلَابَةِ وَ الشَّدَّةِ فَشَبَّهَهَا بِحَبْلِ فَتِلَتْ قَوَاهُ وَ هِيَ مَرَائِرُهُ بَعْدَ أَنْ نَقَّيْتُ مِنْ كَسَارَةِ الْعِيدَانِ وَ رِضَاضِهَا وَ إِذَا نَقَّيْتُ مِنْ ذَلِكَ جَادَ الْحَبْلُ وَ صَلَبَ وَ اشْتَدَّ فَتْلُهُ وَ أَمِنْ انْتِشَارِهِ، وَ إِذَا فَتَلَ عَلَى تِلْكَ الْكَسَارَةِ وَ ذَلِكَ الرِّضَاضُ لَمْ يَشْتَدَّ الْفَتْلُ وَ أُسْرِعَ إِلَيْهِ الْإِنْتِشَارُ، وَ أَصْلُ الْعَجَمِ النَّوَى، شَبَّهَ مَا يَبْقَى مِنْ عِيدَانِ الْكَتَّانِ فِي مَرَائِرِ الْحَبْلِ بِهِ، وَ هَذَا مِثْلُ يَضْرِبُ كُلَّ شَيْءٍ اشْتَدَّ وَ قَوِيَ فَيَقَالُ إِنَّهُ لَدُو مَرَّةً أَيْ ذُو فَتْلٍ».²⁶³

و لا يجاري ابن قتيبة غيره في الأحكام، بل يترث ليحكم ذوقه فيما يعرض له من شعر، ثم يكشف بعد ذلك عن مواطن الحسن و الجمال التي خفيت عن الآخرين و من ذلك ما جاء في قول النابغة الجعدي:

كَأَنَّ تَوَالِيَهَا بِالضُّحَى *** نَوَاعِمُ جَعَلٍ مِنَ الْأَتَابِ *

فقد وضّح ابن قتيبة الصورة البيانية قائلاً: « فَقَدْ أَخَذَ عَلَيْهِ وَ قَالُوا الْجَعْلُ صَغَارُ النَّخْلِ فَكَيْفَ جَعَلَهُ الْأَتَابُ وَ لَا أَرَاهُ إِلَّا صَحِيحًا عَلَى التَّشْبِيهِ كَأَنَّهُ أَرَادَ نَوَاعِمَ أَتَابِ

*** - الأجزم: المقطوع اليد. ينظر: لسان العرب: 87/12.

²⁶² - ديوان أبي نواس- دار صادر- بيروت- ط1- دبت: 539.

* - مرائر: الحبال المقتولة على أكثر من طاق. ينظر: لسان العرب: 169/5.

²⁶³ - الشعر و الشعراء: 550.

* - جعل: الفسيلة أو النخلة الصغيرة. الأتأب ثوب تضعه المرأة. ينظر: لسان العرب: 205/1-112/11.

كالجعل و قد تسمّي العرب الشيء باسم الشيء إذا كان له مشبهها و لعلّ الأتأب أن تكون تسمّى إفنأؤه جعلاً كما تسمّى إفنأء النخل و قصاره جعلاً». ²⁶⁴

و يؤكّد ذلك مرّة أخرى عندما يعرض لقول « المسيب بن علس

وَ كَأَنَّ غَارِبَهَا رِبَاوَةٌ مُحَرَّمٌ *** وَ تُمَدُّ ثَنِيَّ جَدِيلِهَا بِشِرَاعٍ*

أراد تمّد جديلها بعنق طويلة، و الجدّيل الزمام، و أراد أن يشبّه العنق بالدقل فشبهها بالشرع. قال ابن الأعرابي لم يعرف الشرع من الدقل و ليس هذا عندي غلطاً، و الشرع يكون على الدقل فسمّي باسمه و العرب تسمي الشيء باسم غيره إذا كان معه
و بسببه». ²⁶⁵

و من التشبيهات التي ذكرها ابن قتيبة تشبيه شيء بثلاثة أشياء، من ذلك شبّه زهير امرأة في الشعر بثلاثة أوصاف في بيت واحد فقال: ²⁶⁶

تَنَازَعَتِ الْمَهَا شَبَهَا وَ دُرُّ النُّحُورِ *** وَ شَاكَهَتْ فِيهِ الظُّبَاءُ*

ثم قال ففسّر ²⁶⁷:

فَأَمَّا مَا فَوْقَ الْعِقْدِ مِنْهَا *** فَمِنْ أَدْمَاءَ مَرَّتَعُهَا الْخَلَاءُ

وَ أَمَّا الْمُقْلَتَانِ فَمِنْ مَهَاةٍ *** وَ لِلدَّرِّ الْمَلَا حَةُ وَ الصَّفَاءُ.

و ربّما اكتفى قتيبة أحياناً بالإشارة السريعة إلى التشبيه في كتابه "الشعر و الشعراء" أمّا إذا تصفحنا كتبه الأخرى فنجد الرجل يقف عند بعض التشبيهات

²⁶⁴ - الشعر و الشعراء: 254.

* - غاربها: أعلا مقدم السنام. رباوة كل ما ارتفع من الأرض. مخرم: أنف الجبل. ينظر: لسان العرب: 644/1-170/12-306/14.

²⁶⁵ - الشعر و الشعراء: 102.

²⁶⁶ - ديوان زهير بن أبي سلمى- تحقيق كرم البستاني- دار بيروت للطباعة و النشر- ط1- 1982: 08.

* - المهّا: بقرة الوحش. درّ: كثير اللبن. شاكّهت: شابّهت. ينظر: لسان العرب: 508/13-279/4-299/15.

²⁶⁷ - نفسه: 9/8.

فيحللها تحليلاً بلاغياً يستوفي الصورة حقّها، و يبرز خصائصها الفنية، فالمشبه و المشبه به لابد من تقاربهما في وجه الشبه، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهَ جَمَالَاتٌ صُفْرٌ﴾²⁶⁸ يقول: «و وقع تشبيه الشرر بالقصر في مقاديره، ثم شبه في لونه بالجمالة الصفر، و هي السود، و العرب تسمى السود من الإبل صفراء... و الشيء إذا تطاير فسقط و فيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود لما يشوبها من الصفرة».²⁶⁹

و تطفن ابن قتيبة إلى ما عرف بالتشبيه المشروط عندما وقف على تأويل قوله تعالى: ﴿و تَرَى الْجِبَالَ تَخْسِبُهَا جَامِدَةٌ وَ هِيَ تَمْزُ مَرَّ السَّحَابِ﴾²⁷⁰ فقال: « يريد أنّها تجمع و تسير، فهي لكثرتها كأنّها جامدة واقفة في رأي العين، و هي تسير سير السحاب و كل جيش غصّ الفضاء به لكثرتة، و بعد ما بين أطرافه فقصر عنه البصر، فكأنّه في حسان الناظر واقف و هو يسير».²⁷¹

و يعرفه القزويني قائلاً: «و يسمى هذا التشبيه المشروط؛ و باعتبار أدواته إمّا مؤكّدة، و هو ما حذفت أدواته مثل قوله تعالى: ﴿و هِيَ تَمْزُ مَرَّ السَّحَابِ﴾».²⁷²
و مما ذكره ابن قتيبة في تفسير قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ خُنُونٍ﴾²⁷³ قال: « العرب تشبّه النساء ببيض النعام، قال امرؤ القيس :

كَبِكْرِ الْمَقَانَاتِ الْبَيَاضِ بِصُفْرَةٍ *** عَذَاهَا تَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرَ مُحَلَّلٍ **
و "المكنون" المصون، يقال: كنت الشيء، إذا صنته، و أكننته، أخفيتّه».²⁷⁴

²⁶⁸ - سورة المرسلات: 32-33.
²⁶⁹ - تأويل مشكل القرآن- لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة- شركة السيد أحمد صقر- المكتبة العلمية- ط1- د.ت: 320.
²⁷⁰ - سورة النمل: 88.
²⁷¹ - تأويل مشكل القرآن: 06.
²⁷² - التلخيص في علوم القرآن- ضبط و شرح عبد الرحمن البرقوقي- دار الكتاب العربي- لبنان- ط1- 1904م: 286.
²⁷³ - سورة الصافات: 49.
* - البيت غير موجود في الديوان.
**-نمير الماء: الناجع في الرّي. ينظر: لسان العرب: 236/5.
²⁷⁴ - تفسير غريب القرآن- أبي عبيدة الله بن مسلم بن قتيبة- شرحه ابراهيم محمد رمضان- مكتبة الهلال-بيروت- ط1-1991م: 319.

و هذا ما عرّفه أبو هلال العسكري بأنّه تشبيه شيء بشيء، فقال:
 «و يصحّ تشبيه الشيء بالشيء جملة، و إن شابه من وجه واحد».²⁷⁵
 و من ذلك تشبيه الشيء بالشيئين، و منه قول أوس بن حجر²⁷⁶ في وصف
 السيف:

كَأَنَّ مَدَبَّ النَّمْلِ يَلْتَمِسُ الرَّبِّي *** وَ مَدْرَجَ ذَرٍّ خَافَ بَرْدًا فَأَسْهَلَ*

قال ابن قتيبة: «شبه فرند السيف بمدرج الذرّ و مدبّ النمل».²⁷⁷
 و يؤكّد ابن قتيبة مقدرته الفنيّة على تذوق النصوص عندما يحلّل صورة فنيّة من مثل
 قول الشاعر:

كَأَنَّ نِيرَانَهُمْ فِي كُلِّ مَنَزَلَةٍ *** مُصَبَّغَاتٍ عَلَى أَرْسَانِ قَصَّارٍ

«الناس يستحسنون هذا و أنا أرى أن أقول: الأولى أن يشبه المصبغات بالنيران لا
 النيران بالمصبغات».²⁷⁸
 إنّ وجهة نظره في هذا المثال جيّدة، إذ أنّ وجه التشبيه في المشبه به أقوى و أتمّ منه
 في المشبّه.

و نجد ابن قتيبة يحلّل صورة أخرى من القرآن و يدلي فيها برأيه مستعينا بما أثر
 عن العرب فيقول في الآية الكريمة: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾²⁷⁹ أي « غروبها، و يقال
 زوالها و الأول أحب إليّ، لأنّ العرب تقول: ذلك النجم إذا غاب، فقال ذو الرّمة*:

²⁷⁵ - الصناعتين الكتابة و الشعر- أبي هلال العسكري- تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل ابراهيم- دار الفكر العربي- ط2- د.ت: 251.
²⁷⁶ - ديوان أوس بن حجر- تحقيق محمد يوسف نجم- دار صادر- بيروت- ط2- د.ت: 85.
 * -مدرج: المواضع التي يمشي فيها. ذرّ: نثرز ينظر: لسان العرب: 226/2- 305/4.
²⁷⁷ - عيون الأخبار- ابن قتيبة- إعادة طبعة دار الكتاب العربي- دار الكتب المصرية- ط1- 1925م: 187/2.
²⁷⁸ - نفسه: 191/2. و هذا النوع من التشبيه سماه المتأخرون: التشبيه المقلوب.
²⁷⁹ - سورة الإسراء: 08.
 * - ديوان شعر ذي الرّمة و هو غيلان بن عقبة العدوي- راجعه و قدّم له و أتمّ شروحه و تعليقاته زهير فتح الله- دار صادر -بيروت- ط1- 1995م: 365.

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا *** نُجُومٌ وَ لَا بِالْأَفَلَاتِ الدَّوَالِكِ **

و تقول في الشمس: دلكت براح، يريدون غزيت و الناظر قد وضع كفه على حاجبه ينظر إليها.
قال الشاعر:

وَ الشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ دَنَفًا *** أَدْفَعُهَا بِالرَّاحِ كَيْ تَزْخَلَفَا ***

فشبهها بالمريض في الدنف، لأنها قد همت بالغروب كما قارب الدنف الموت و إنما ينظر إليها من تحت الكف، ليعلم كم بقي لها إلى أن تغيب و يتوقى الشعاع بكفه». 280

كما فسّر قوله تعالى: ﴿هَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾²⁸¹ بقوله: «أي فما لها من أصل، فشبهه كلمة الشرك بمنظلة قطعت، فلا أصل لها في الأرض و لا فرع لها في السماء و لا حمل». 282

و لقد عرض ابن قتيبة إلى تأويل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾²⁸³ فقال: «أي ليس كهو شيء، و العرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول: مثلي لا يقال له هذا، أي أنا لا يقال لي». 284

و يوجد فهم سليم آخر للآية هو «﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾» لكان ذلك نفيا للمثل المكافئ، و هو المثل التام المماثلة فحسب، إذ أنّ هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه، و إذا لدبّ إلى النفس ديب الوسوس و الأوهام؛ أن لعل

** - مصابيح: يعني الإبل، تصبح في الأماكن التي تبرك فيها. أفل النجم: غاب. الدوالك: التي دلكت أي غابت أو دنت للمغيب.

*** - دنفا: دنت للمغيب. تزخلفا: تزأج. ينظر: لسان العرب: 107/9-131/9.

280 - تفسير غريب القرآن: 220.

281 - سورة إبراهيم: 26.

282 - تفسير غريب القرآن: 199.

283 - سورة الشورى: 02.

284 - تفسير غريب القرآن: 378.

هناك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية و لكنّها تليها، و أنّ عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة و الأنبياء، أو للكواكب و قوى الطبيعة، أو للجنّ و الأوثان و الكهان. فيكون لهم بالإله الحقّ شبه في قدرته أو علمه، و شرك ما في خلقه أو أمره. فكان وضع هذا الحرف - الكاف- في الكلام إقصاء للعالم كلّ عن المماثلة و عمّا يشبه المماثلة و ما يدنو منها، كأنّه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً لله، فضلاً عن أن يكون مثلاً له على الحقيقة».²⁸⁵

و يتفنن ابن قتيبة في فهم النصوص القرآنية، إذ يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾²⁸⁶ «أي جذب يقال: "إنّ الجائع فيه كاد يرى بينه و بين السماء دخاناً، من شدّة الجوع"، و يقال: "بل قيل للجوع، دخان لئیس الأرض في سنة الجذب و انقطاع النبات، و ارتفاع الغبار. فشبه ما يرتفع منه بالدخان، كما قيل لسنة الجماعة غبراء؛ و قيل جوع أغبرو ربّما وضعت العرب الدخان موضع الشرّ إذا علا، فيقولون: كان بيننا أمر ارتفع له دخان».²⁸⁷

و بناء على دراسة التشبيه عند النحاة الثلاثة: سيويه و الفراء و أبو عبيدة، نخلص إلى القول بأن:

-دراسة التشبيه في هذه الفترة تعدّ متطورة نسبياً فلقد وقعت الإشارة إلى عناصر التشبيه الأساسية: المشبه و المشبه به و وجه الشبه و إن لم يعلقوا كلّ مفهوم بالمصطلح المناسب له، كما أشاروا إلى أهمّ طرقه كالتشبيه بالأداة، و بالبدل، و المصدر المنصوب، و فرقوا بين نوعيه: التشبيه البسيط و تشبيه التمثيل، و اهتمّوا في درجة أقلّ بالمعنى الحاصل منه و بالجانب النفسي فيه، إلّا أنّ ذلك لم يرد في نطاق بحث منظم و درس مستقل يتعمق القضايا و يحللها باحثاً عن الأبعاد الفنية التي تتضمنها هذه الطريقة في الأداء.

²⁸⁵ - النبأ العظيم "نظرات جديدة في القرآن" - لمحمد عبد الله درّاز - دار القلم - الكويت - ط4 - 1977م: 133.

²⁸⁶ -سورة الدخان: 44.

²⁸⁷ -تفسير غريب القرآن- ص346.

-إنّ المنهج الذي اعتمده هؤلاء النحاة طرح جملة من المسائل جعلتهم بالتفكير فيها يتجاوزون حدود النحو إلى أبحاث رسمت إطاراً نظرياً صالحاً لجملة المشاغل اللغوية المتأخّرة بما في ذلك البحث البلاغي.

و خلاصة القول في التشبيه في أسلوب القرآن عند الجاحظ ما نجمله في النقاط التالية²⁸⁸:

- 1- أنّ الجاحظ كان ينظر للأسلوب القرآني نظرة عقلية مجردة تتأثر بذوقه الخاص و إحساسه الخاص، فهي نظرة ذهنية فنية في أساسها.
- 2- لم تكوّن تلك النظرة للأسلوب القرآني قاعدة عامة تدرج تحتها هذه اللّمحات الفنية، و تنبض في نطاقها كدليل على صحتها، بمعنى أنّها تفتقد الوحدة العضوية بين أجزائها المتعددة، فهي شذرات منتشرة هنا و هناك من غير ترابط و لا اتساق.
- 3- نظر للأسلوب القرآني نظرة جدية باعتبار النظم و التركيب فتحت الباب لدراسات على جانب كبير من الأهمية في أسلوب القرآن، و بالرغم من أن هذه النظرة كانت جزئية تبرز في آية دون أخرى، إلّا أنّها ذات خطر حول ما يتعلق بالإعجاز.
- 4- لم تكن الدلالات البلاغية في دراساته القرآنية مقصودة لذاتها لتكوّن نظرية عامة، و إنما كانت انسياً بتأثيرها يفيض في بعض المواقف دون بعض، و على كل حال فقد كانت نظرة الجاحظ حلقة مبكّرة في مجال هذه الدراسات لها قيمتها الكبيرة.
- 5- أنّ التشبيه في القرآن -فيما يتصل بالذات الإلهية و أحوال الملائكة، و اليوم الآخر فيه من الجنة و النار و مشاهدهما- صور ذهنية في قوالب و أشكال مادية محسوسة لإبراز المعنى و تشبيته في النفوس.
- 6- و التشبيه فيما عدا ذلك يجري حسبما يقتضيه التعبير الأدبي -عند البلاغيين و النقاد- و قد بدأ مدلوله هذا يتضح عند الجاحظ.

²⁸⁸ - ينظر: بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ: 49-50. و أثر القرآن في تطور النقد: 92.

7- لم يكن لفظ التشبيه قد استقر بعد على الصورة التي عرفت بعد في البلاغة بل تنازع مدلولها ثلاث ألفاظ (البدل، و المثل، و التشبيه).

8- تعمّق الجاحظ في بيان أوجه الشبه و تفصيل أجزائه مع شرح واف -في كثير من الأحيان- ليوضح الغرض القرآني في التعبير.

9- كان الحجاج الديني و محاولة تسفيه آراء أصحاب الظاهر من المفسرين و اللغويين من أهم الدواعي إلى التعمّق في بحث التشبيه عنده، ليفلت من القيود الحسّية و من التجسيم.

أما الملاحظات التي يمكن أن نستشفّها من خلال دراسة الجاحظ للتشبيه في أشعار العرب و كلامهم فهي:

- أنه أول من قدّم لنا تعريف اصطلاحى للتشبيه: « إن قام الشيء مقام الشيء أو مقام صاحبه فمن عادة العرب أن تشبّه به في حالات كثيرة»²⁸⁹

- أنه أول من أرسى دعائم فكرة العلاقة بين المشبه و المشبه به.

- أنّ التشبيه عنده يفيد العينية لا الغيرية.

- أنه جمع أمثلة عديدة في التشبيه تحت نفس العنوان و من عصور مختلفة.

- أنّ دراسته كانت عملية أكثر منها نظريّة.

فالجاحظ إذن « و إن لم يضع حدودا واضحة للتشبيه، فقد أفاد إلى حدّ كبير، و ألقى ضوءاً على جملة من قضاياها، ممّا أعان المتأخرين على إتمام الصورة من بعده».²⁹⁰

و بعد دراسة الشواهد التي أوردها ابن قتيبة عند دراسته للتشبيه يتبيّن لنا:

- أنّ دراسة ابن قتيبة لفنّ التشبيه في كتابه "الشعر و الشعراء" لم يكن شافية ملمّة

بكلّ جوانب الصورة البيانية بل كانت وسيلة للمفاضلة بين الشعراء و تصنيفهم في طبقات.

²⁸⁹ - الحيوان: 373/4.

²⁹⁰ - البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم- عبد الفتاح لاشين- دار الفكر العربي-ط2- 1460هـ/2000م : 26.

- أنّ جملة الأبيات التي اختارها ضمن ما أسماه "حسن التشبيه" تدل على دقّته في الاختيار.

- أنّه ذكر آراء الآخرين أثناء التحليل ثمّ عبّر عن رأيه الخاص.

- أنّه كان بارعاً في معاشة النصوص و سبر أغوارها، و الكشف عن بديع معانيها، فرغم أنّه لم يقسّم التشبيه إلّا أنّه عرّف وظيفته في الكلام، و دلّ على فخامة قدرها من تحليلاتها القيّمة.

الفصل الثاني

التشبيه عند المبرّد

الفصل الثاني : التشبيه عند المبرد

تمهيد

أولا : حدّ التشبيه

ثانيا : أقسامه

- 1- التشبيه المصيب
- 2- التشبيه المتجاوز المفرط
- 3- التشبيه المقارب
- 4- التشبيه البعيد
- 5- التشبيه المليح
- 6- التشبيه الجيد
- 7- التشبيه الحسن
- 8- التشبيه العجيب
- 9- التشبيه المحمود
- 10- التشبيه المختصر
- 11- تشبيهات غريبة مفهومة
- 12- التشبيه المطرد
- 13- تشبيه المحدثين المستطرف
- 14- تشبيه سخي

ملخص :

إنّ أبرز مجهود شخصي بذله المبرّد فيما يتعلق بالبلاغة العربية، ذلك الباب الطريف الذي عقده للتشبيه. فهو في هذا الباب كلّ لم يعتمد على أسلافه من علماء البلاغة و النحو و اللّغة كسيبويه و الفراء و أبي عبيدة و ابن قتيبة، و إنّما اعتمد على استقراءاته في الشعر العربي، و جمع الشواهد الشعرية التي تحقق له أفراد باب بأكمله في موضوع واحد.

و التشبيه قبل المبرّد كان موزّعا في كتب السابقين، يصادفنا خلال حديث المؤلف عن موضوع بعينه قد يكون بعيدا كل البعد عن التشبيه، فيستطرد منه إلى مثال في التشبيه، أو تعقيب على بيت من الشعر تضمن تشبيها، أو بعض آيات من القرآن حفلت بالتشبيه و على كل، فلم يكن الحديث عن التشبيه قبل المبرّد هو القصد الأول الذي يرمي إليه المؤلف و إنّما نراه داخلا في طيّات غيره.

و لما جاء المبرّد أفرد له بابا مستقلا أطل فيه الحديث عنه، بدأه بقوله: « و هذا باب طريف نصل به هذا الباب، الجامع الذي ذكرناه و هو بعض ما مرّ للعرب من التشبيه المصيب و المحدثين بعدهم ».²⁹¹

و مردّ اهتمام المبرّد بالتشبيه اقتناعه بعد ممارسة لغة العرب و أشعارها، بأنه أكثر أساليب التعبير انتشارا.

و قد عبّر عن هذه القناعة في مواطن عديدة من هذا الباب منها قوله: « و التشبيه جار كثير في كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يُبعدْ ».²⁹²

²⁹¹ - الكامل: 40/2.

²⁹² - نفسه: 79/2.

و أيضا قوله: « و التشبيه كثير و هو باب كأنه لا آخر له ».²⁹³

و يظهر تفرد المبرّد عن سابقه بطريقته المتوخاة في دراسة التشبيه إذ بناها على الاستقراء و الاستنتاج الشخصي، لا على الرواية و النقل. فقد عمد إلى الشعر العربي القديم و المحدث، و انتقى ما تضمنته عيونه من تشبيهات مصيبة جيّدة. و بذلك جمعت لديه مادّة غزيرة اعتمد عليها في تأسيس الباب شواهد و استنتاجات.

و كان المبرّد «يورد ما عرف العرب في كلامهم من ضروب التشبيه المختلفة و ما تعودوا أن يشبّوها به من أشياء تقع تحت حسّهم من واقع حياتهم، و قد ارتسمت في أذهانهم بمعان خاصة. و يبدأ بما جاء في شعر القدماء ثم يتبعه بما جاء و استحسّن في شعر المحدثين».²⁹⁴

و رغم أنّ المبرّد يعدّ أحد علماء اللّغة في عصره إلا أن حبه للقديم و انشغاله بالدراسات اللّغوية لم يؤثّر على تعاطفه مع الشعر المحدث و إنصافه له.²⁹⁵ و يتضح إنصافه للشعر الحديث من اعتقاده بزيّف المقياس القديم، الذي يعوّل في قبول الشعر أو رفضه على الزمن وحده، و يلخص هذا الموقف قوله: « و ليس لقدم العهد يفضل القائل و لا لحدثان عهد يهتضم المصيب و لكن يعطي كل ما يستحق ».²⁹⁶

و من استقراءه للنماذج الشعرية الكبيرة استخلص معلومات نظرية تدور حول محورين أساسيين: حد التشبيه و أقسامه.

²⁹³ - الكامل: 115/2.

²⁹⁴ - تاريخ النقد و البلاغة: 377.

²⁹⁵ - ينظر: الخصومة بين القدماء و المحدثين في النقد العربي القديم تاريخها و قضاياها- لعثمان صوافي- دار المعرفة

الجامعية- ط3- 1995م: 39.

²⁹⁶ - الكامل: 18/1. و قد أشار إلى هذه الفكرة بن قتيبة. ينظر: الشعر و الشعراء: 23-24.

أولاً: حدّ التشبيه:

لم يعن القدماء بحدّ التشبيه كما فعل المتأخرون، و إنما عرفوه صورة توضح الفكرة، و تحسّن المعنى، عرفه امرئ القيس، فقال في صفة الفرس²⁹⁷:

مِكْرٌ مِقْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا *** كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

و عرفه النابغة فقال²⁹⁸:

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَ الْمَلُوكُ كَوَاكِبُ *** إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

و عرفه عنتره و طرفه و الأعشى، و غيرهم كثير. و عندما أشرقت شمس الإسلام، سار شعراؤه سيرة من قبلهم مع تأثرهم بتصوير القرآن الكريم.

و لم يعرف التشبيه إلا عند المبرد فأكد ما نقلنا عن الجاحظ من أن وجه الشبه يقع في بعض الصفات لا كلها و بين علاقة طرفيه التي يشترط فيها أن تكون علاقة اتحاد، و علاقة خلاف أو تباين، في نفس الوقت فقال: « و اعلم أن للتشبيه حدًا. فالأشياء تشابه من وجوه و تباين من وجوه: فإنما ينظر إلى التشبيه من وجوه وقع ». ²⁹⁹

و البحث في هاتين العلاقتين أدّى بالمبرد إلى « اكتشاف غاية في الأهمية لو أدرك هو، أو البلاغيون المتأخرون، أبعاده النظرية لكانوا فتحوا لعلم المعاني آفاقا لم يلجها إلا في النصف الثاني من القرن العشرين ». ³⁰⁰

²⁹⁷ - لم أجد البيت في الديوان.

²⁹⁸ - ديوان النابغة الذبياني: 18.

²⁹⁹ - الكامل: 54/2.

³⁰⁰ - التفكير البلاغي عند العرب: 363.

و يتمثل هذا الاكتشاف في أن التشبيه « ممكن، لأن ما يظن أنه وحدة معنوية لا تتجزأ. إنما هو في الحقيقة جسم مركب من وحدات تتكتل مع بعضها لتكون المعنى الكلي الذي يبرز من اللفظة ».³⁰¹

و دليل ذلك قوله: « فإنما ينظر إلى التشبيه من وجوه وقع فإن شبه الوجه بالشمس فإنما يريد الضياء و الرونق و لا يراد العظم و الإحراق ».³⁰²

فلفظة "الشمس" تعبّر عن « معنى مفرد في الظاهر، عبّر عنه بلفظ مفرد، إلا أنه مركب لمن تعمّقه، من عدد من "المعانم" * و هي بمثابة الهباءات في الجسم الكيميائي. فالشمس: ضياء، رونق، عظم، إحراق، ... ».³⁰³

و بهذا يكون المبرّد قد فتح للكاتب آفاقا واسعة للتصوير و ترك للقارئ و الناقد حريّة التأويل بحكم ضرورة تقاطع الأشياء في جهة من جهات هذا الحقل المعنوي الشاسع. و هذا منطوق عبارة المبرّد: " و إنما نقصد من كلّ شيء إلى شيء"³⁰⁴ و هي عبارة تكشف عن اتساع الأبعاد أمام عملية التصوير الفني، و تفتح للأجيال المقبلة بابا من أبواب النقاش الأدبي الهام، لمعرفة ما إذا كانت قيمة الصورة في تظن الشاعر إلى العلاقات الخفية و شعوره بما لا يشعر به غيره، أم أن قيمتها رهينة حجم المعاني المتقاطعة؟³⁰⁵

³⁰¹ - التفكير البلاغي عند العرب: 363.

³⁰² - الكامل: 54/2.

* - إن فكرة "المعنم" كانت من أهم مكتسبات علم المعاني البنيوي. ينظر: التفكير البلاغي عند العرب: 364.

³⁰³ - التفكير البلاغي عند العرب: 363-364.

³⁰⁴ - الكامل: 55/2.

³⁰⁵ - ينظر: التفكير البلاغي عند العرب: 364.

ثانياً: أقسامه:

إنّ المبرّد أوّل من قسم التشبيه إلى أقسام عديدة هي:

1- التشبيه المصيب³⁰⁶:

يعتبر المبرّد التشبيه المصيب من أهمّ أقسامه « لأنّه يحقّق صفات التطليق بين الأطراف الخارجية لعناصر المشابهة، و يقوم على لياقة عقلية واضحة ».³⁰⁷

و يعني التشبيه المصيب عنده ذلك التشبيه الذي « لا يتجاوز الواقع، و إنّما يصيب القول دون إفراط. و هو ما اتفق الناس على صدقه و عدم تجاوزه الحدود المتعارف عليها ».³⁰⁸

وقف المبرّد عند بيت لامرئ القيس، كان اللّغويون قبله و بعده معجبون به إعجاباً كبيراً، و هو قوله³⁰⁹:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَ يَابِسًا *** لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَ الْحَشْفُ الْبَالِي

و اعتبره من أحسن التشبيهات المصيبة حيث قال: « فأحسن ذلك ما جاء بإجماع الرواة ما مرّ لامرئ القيس في كلام مختصر أي بيت واحد من تشبيه شيء في حالتين بشيئين مختلفين »³¹⁰. و علق عليه بقوله: « فهذا مفهوم المعنى فإن اعترض معترض، فقال: فهلاًّ فصلّ فقال كأنه رطبا العنّاب و كأنّه يابسا الحشف، قيل له: العربي الفصيح الفطن اللّكن يرمي بالقول مفهوماً، و يرى ما بعد ذلك ذكر من التكرير عيا »³¹¹.

³⁰⁶ - للتوسّع ينظر: الكامل: 43/2-46-77.

³⁰⁷ - الصورة الفنّية في التراث النقدي و البلاغي: 214.

³⁰⁸ - المختصر: 67.

³⁰⁹ - ديوان امرئ القيس: 145.

³¹⁰ - الكامل: 40/2.

³¹¹ - نفسه: 40/2-41.

لقد كان هذا الإعجاب الواضح بيت امرئ القيس مبررا، لأن التشبيه تتوافر فيه كل صفات الدقة و الإصابة و الصحة، فضلا عن أن امرأ القيس جمع تشبيهين في بيت واحد و هذه براعة شكلية لفتت الأنظار.

و من التشبيه المصيب أيضا أبياتا نسبها لتوبة بن الحمير في حين أن أبا الحسن يقول أنها لمجنون بني عامر، و هي³¹²:

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُغْدَى *** بِلَيْلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ

قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرُّكَ فَبَاتَتْ *** تُعَاجِلُهُ، وَ قَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

لَهَا فَرَحَانٍ قَدْ عَلِقَا بِوَكْرِ *** فَعُشُّهُمَا تُصَفِّقُهُ الرِّيَّاحُ

فَلَا بِاللَّيْلِ نَالَتْ مَا تُرَجِّي *** وَ لَا بِالصُّبْحِ كَانَ لَهَا بَرَاخُ

و علّق عليها قائلا: « و قد قال الشعراء قبله و بعده فلم يبلغوا هذا المقدار»³¹³.

بينما نجد مصطفى الصاوي الجويني يحلل هذه الأبيات، تحليلًا دقيقًا يبين فيه أثر هذه الأبيات على النفس، فيقول: « إذا كان الرسم خطوطا و ألوانا تصور فإنّ الشاعر هنا قد رسم بخياله موقفا عاطفيا مؤثرا يفيض حيوية و إحساسا صادقا -رحل الأهل بالمحبة ليلي- و لا حيلة لها حين يراح بها أو يجاء -ضعيفة مستسلمة- و لأنه و إيّاها كالشخص الواحد فقد نقلت إليه عدوى ضعفها، صار قلبه حين غادرته كالقطاة، خدعها ما انغرز في جناحها، و الشرك هنا الأيام الممتلئة بحلو الأماني، فلما جذبت جناحه صار عاجزا عن الطيران.

³¹² - ديوان توبة بن الحمير - عني بتحقيقه و شرحه خليل ابراهيم العطية- دار صادر بيروت- ط1- 1998م: 85.

³¹³ - الكامل: 44/2.

في آفاق الأمل و السعادة، هو جناح مجروح، و محبوبته جناح آخر ممسوك، تأكيد ثان أنهما شخص واحد، ثم العجز و الحيرة في مواجهة الكارثة، هما فرخان أولهما فرخان؛ سيان، فالصورة رمز، محبوسان تلعب بوكرهما الريح، جنة حبهما تزلزلهما رياح القدر، و يجيء إظلام لا يستطيعان تحت ستاره أن يخلصا مما هما فيه، و يجيء صباح قد يأملان فيه الفرج و لا فرج، و الظلمة كآبة و الإصباح أمل، و لا نجاة لهما مع اكتئاب أو تأميل... أي حيرة و أي صدق في تصوير الحسّ الوجداني تصويرا رامزا .

و طريف أن يكون البيت الأول حاكيا لموقف ليلي و الثاني لموقف الشاعر المحبّ الذي ضعف أمام الكارثة ثم البيتان الثالث و الرابع يشترك فيه المحبّان المقهوران على أمرهما و هكذا شاء الشاعر بعد أن فنى في محبوبته أن يشكل الأبيات تشكيلا يأخذ كل واحد منهما فيه خطأ متماثلا³¹⁴.

و من هنا يمكن القول: إنّ المبرّد كان يتطلب من التشبيه الإصابة « و الإصابة و المقارنة في التشبيه مصطلحان يمكن أن يندرجا تحت ما نسميه بالتناسب المنطقي بين أطراف التشبيه، لأنّهما يرتبطان — في النهاية — بمدى التوافق الشكلي بين الأطراف³¹⁵ ».

و المبرّد حين يختار نماذج التشبيه المصيب يكشف لنا عن ذوق لا بأس به، و هو حين يتقبل كثيرا من التشبيهات فإنّه يضيف عليها قيمة واضحة، لا لشيء إلّا لأنّها تحقق فكرته عن الإصابة بمعناها الخارجي و المنطقي .

³¹⁴ - البيان فن الصورة- لمصطفى الصاوي الجويني- دار المعرفة الجامعية- إسكندرية- 1993م: 83-84.
³¹⁵ -الصورة الفنية: 214.

2- التشبيه المفرط المتجاوز المفرط:

التشبيه المفرط هو التشبيه « المبالغ فيه، أو المبالغ في الصفة التي تجمع بين المشبه و المشبه به »³¹⁶. أو بمعنى آخر هو التشبيه الذي يتجاوز الحدود، و يتخطى ما تعارف الناس عليه.³¹⁷

و يمثل له في القرآن الكريم بقول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾³¹⁸.

أما التشبيه المفرط في أشعار العرب فيختار المبرد قول الخنساء³¹⁹:

وَ إِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهَدَاةُ بِهِ *** كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

و يعلق عليه قائلا: « فجعلت المهتدى يأتّم به، و جعله كنار في رأس علم و العلم الجبل »³²⁰.

فتشبيه الخنساء نابع عن البيئة، طول السرى في الصحراء، النار أعلى الجبل ليهتدي الساري. هو تشبيه صادق جميل في عصره.

و من أفرط التشبيه أيضا قول أبي خراش الهذلي، يصف سرعة ابنه في العدو³²¹:

³¹⁶ - علم المعاني، البيان، البديع- لعبد العزيز عتيق- دار النهضة العربية للطباعة و النشر- بيروت: 269.

³¹⁷ - ينظر: المختصر: 67.

³¹⁸ -سورة الرحمن: 24.

³¹⁹ - ديوان الخنساء-دار بيروت للطباعة و النشر- ط1- 1398هـ/1978م: 49.

³²⁰ - الكامل: 50/2.

³²¹ - شعر الهذيليين في العصرين الجاهلي و الإسلامي- أحمد كمال زكي- دار الكاتب العربي للطباعة و النشر-

1389هـ/1969م- ط1: 193. و اللفظ بتمامه:

كَأَنَّهُمْ يَشْبَثُونَ بِطَائِرٍ *** خَفِيفِ الْمَشَاشِ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي نَحْضٍ
يُبَادِرُ قُرْبَ اللَّيْلِ فَهُوَ مُهَابِدٌ *** يَحُثُّ الْجَنَاحَ بِالنَّبَسِطِ وَ الْقَبْضِ

كَأَنَّهُمْ يَسْعَوْنَ فِي إِثْرِ طَائِرٍ *** خَفِيفِ الْمَشَاشِ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي نَحْضٍ *

يُبَادِرُ جُنْحَ اللَّيْلِ فَهُوَ مُهَابِذٌ *** يَحْتُ الْجَنَاحَ بِالتَّبْسُطِ وَالْقَيْضِ **

فالقوم الذين يعدون خلف خراش كأنهم في سرعتهم يتعلقون بطائر خفيف قليل اللحم يسرع حين يقبل الليل عليه، و يحث جناحيه ببسطهما و قبضهما. و من شعر المحدثين المفرط المتجاوز ذكر المبرّد أبياتا: « قال: بعض المحدثين في رجل يهجو و المهجو داود بن بكر و كان وليّ الأهواز »³²²، و الشعر لأبي الشمقمق³²³:

وَ لَهُ لِحْيَةٌ تَيْسٍ *** وَ لَهُ مِنْقَارٌ نَسْرِ

وَ لَهُ نَكْهَةٌ لَيْثٍ *** خَالَطَتْ نَكْهَةً صَقْرِ

إنّ الإفراط في التشبيه لا يعدّ كذبا و إنّما هو : قول صادق موشى بزينة المبالغة، تلك التي لاحظها المبرّد و أعجب بها أيما إعجاب.³²⁴ و من التشبيه المفرط المتجاوز في كلام العرب « قولهم للسّخيّ هو كالبحر و للشجاع هو كالأسد و للشريف سما حتى بلغ النجم ».³²⁵ و لقد صرّح المبرّد بإعجابه بالتشبيه المتجاوز عندما قال: « و من تشبيههم المتجاوز الجيّد النظم قول أبي الطّمحان:

*-المشاشي: رؤوس العظام التي لا مخّ فيها. ينظر: لسان العرب: 347/6.

**-مهابذ: مسرع في مشيته و طيرانه. يحث: يحرك. التبسط: النشر. القبض: جمع جناحيه. ينظر: لسان العرب:

517/3 - 130/2 - 259/7 - 213/7.

³²² - الكامل: 53/2.

³²³ - ديوان أبي الشمقمق- جمعه و حققه و شرحه: واضح محمد الصمد- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1-

1415هـ/1995م: 44

³²⁴ - ينظر: المختصر: 66-67.

³²⁵ - الكامل: 101/2.

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَ وُجُوهُهُمْ *** دُجِيَ اللَّيْلُ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزَعُ ثَاقِبَةً*³²⁶»

و لم يكتف المبرد بمجرد التعبير عن الإعجاب فتراه يحاول إيجاد سند نظري يدعم به موقفه، و يحلل مقاصد ركوب الإفراط و المبالغة و ذلك بالتعمق في فهم العلاقة الرابطة بين ركني التشبيه الأساسيين: المشبه و المشبه به.

فنجده بعد ذكر البيت يسترسل قائلا: « و يروى عن الأصمعي أنه رأى رجلا يختال في أزير في يوم قرّ في مشيته فقال له: ممن أنت يا مقرر. فقال: أنا ابن الوحيد أمشي الخيزلي و يدفني حسبي. و قيل لآخر في هذه الحال أما يوجعك البرد؟ فقال: بلى و الله و لكّي أذكر حسبي فأدفاً³²⁷».

إن المبرد أعجب بهذا النوع من التشبيه و يستند في تبرير هذا الإعجاب بتفسير عقلي يقنع به من يحاول ردّ هذا القول، بالإضافة إلى أنّه قد أتى بنص قرآني علينا أن نتقبله دون مناقشة، و علينا بعد ذلك أن نتقبل تفسيره، لا عن صحة المبالغة و الإفراط في التشبيه فحسب، بل على جماله و سداذه أيضا.

إلاّ أننا لا نلبث أن نجد المبرد في سياقات أخرى سيء الظنّ بالمبالغة و التشبيه المتجاوز، متشبهها بضرورة مطابقة الفن القولي للحقيقة الموضوعية أو أن يقع قريبا منها على الأقل. فبعد أن أورد قول الشاعر « في النحافة:

فَلَوْ أَنَّ مَا أَبَقَيْتَ مِنِّي مُعَلَّقٌ *** بِعُودِ ثَمَامٍ مَا تَأَوَّدَ عُودُهَا

(الثَّمَامُ* نَبْتُ ضَعِيفٌ، وَاحِدَتُهُ ثَمَامَةٌ) و هذا متجاوز كقول القائل: و يمنعها

من أن تطير زمامها³²⁸».

* - الجزعة: قطعة من الليل. ثاقبه: منير و متوقد. ينظر: لسان العرب: 40/1-49/8.

³²⁶ - الكامل: 102/2.

³²⁷ - نفسه: 102/2.

* - الثَّمَام: نبت ضعيف له خوص. ينظر: لسان العرب: 81/12.

³²⁸ - الكامل: 172/1.

و الشرح اللغوي هنا من قبيل التعريض و الإشارة إلى التجاوز و شدة المبالغة ثم انتقل إلى قانون عام في جودة الشعر و فضله في الحسن يقول: « و أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبّه، و أحسن منه ما أصاب به الحقيقة ».³²⁹

و ستتبوأ هذه القاعدة صدارة المقاييس في جودة النص الأدبي عند عدد لا يستهان به من البلاغيين و النقاد. و من ثم تصبح القانون المتحكم في دراستهم للصورة الفنية .

3- التشبيه المقارِب³³⁰:

هو ذلك التشبيه الصريح الذي يقوم بنفسه و لا يحتاج إلى تفسير أو تأويل، لأنه ظاهر مكشوف يتسم بالبساطة و الوضوح.³³¹

فمن ذلك قوله: « و من حلّو التشبيه و قربه و صريح الكلام »³³² قول ذي الرّمة³³³:

وَ رَمَلٍ كَأَوْرَاكِ الْعَذَارَى قَطَعْتُهُ *** وَ قَدْ جَلَلَتْهُ الظُّلُمَاتُ الْحَنَادِسُ *

إنّ هذا البيت اعتبره ابن الجنيّ (ت 392هـ) من التشبيه المقلوب و قد عقد له فصلا في الخصائص و سماه "غلبة الفروع على الأصول" قال فيه: « هذا فصل من فصول العربية طريف؛ تجده في معاني العرب، كما تجده في معاني الإعراب. و لا تكاد تجد شيئا من ذلك إلّا و الغرض فيه المبالغة ».³³⁴

³²⁹ - الكامل: 173/1.

³³⁰ - للاطلاع ينظر: الكامل: 91/2.

³³¹ - ينظر: المختصر: 67.

³³² - الكامل: 89/2.

³³³ - ديوان ذي الرمة: 290 و البيت بتمامه و لفظه:

وَ رَمَلٍ كَأَوْرَاكِ الْعَذَارَى قَطَعْتُهُ *** إِذَا جَلَلَتْهُ الْمُظْلِمَاتُ الْحَنَادِسُ

* - أورك: أعجاز: جلال: عظم. حنادس: شديد الظلمة. ينظر: لسان العرب: 509/10 - 116/11 - 58/6.

³³⁴ - الخصائص: 300/1-302.

ثم ذكر بيت ذي الرمة و علق عليه قائلا: « أفلا ترى ذا الرّمة كيف جعل الأصل فرعا و الفرع أصلا. و ذلك أن العادة و العرف في نحو هذا أن تشبّه أعجاز النساء بكتبان الأنقاء... فقلب ذو الرّمة العادة و العرف في هذا، فشبه كتبان الأنقاء بأعجاز النساء. و هذا كأنّه يخرج مخرج المبالغة، أي قد ثبت هذا الموضع و هذا المعنى لإعجاز النساء و صار كأنّه الأصل فيه، حتى شبه به كتبان الأنقاء». ³³⁵

و من أمثلة التشبيه المقارب عند المبرد نضيف قول الشّماخ في صفة الفرس ³³⁶:

مُفَجَّ الحَوَامِي عَنْ نُسُورٍ كَأَنَّهَا *** نَوَى الْقَسْبِ تَرَّتْ عَنْ جَرِيمٍ مُلْجَلَجٍ *

إذ قام المبرد بشرح البيت قائلا: « قوله: مفجّ الحوامي، يريد مفرّق الحوامي فالحوامي نواحي الحافر، و النّسور واحدها نسر. و هي نكتة في داخل الحافر، و يحمد الفرس إذا طلب ذلك منه، و لذلك شبه بنوى القسب. و ترّت سقطت، و الجريم المصروم*، و الملجلج الذي قد لجلج مضغا في الفم ثم قذف لصلابته. و قوله: مفجّ ليس يريد الذي هو شديد التفرقة و لكن الانفصال عن النّسر، فإنّه إن اتسع و استوى أسفله فذلك الرّجح، و هو مذموم في الخيل، و كذلك إن ضاق و صغر، قيل له مضطر و كان عيبا قبيحا». ³³⁷

فالتشبيه هنا واضح صريح إذ شبه الشاعر نسور الفرس بالنوى الصلبة.

³³⁵ - الخصائص: 300/1-302.

³³⁶ -ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني- حققه و شرحه صلاح الدين الهادي- دار المعارف بمصر- ط1- 1388هـ/1968م:

78.

* - مفج: موسع مباعد. الحوامي: ميامن الحافر و مياسره. النوى: عجنة التمر و الزبيب. القسبي: الصلب. ترّت: سقطت و انقطعت. جريم: التمر اليابس. ملجلج: أدارها في فمه ثم قذفها. النسر: لحمة صلبة في باطن حافر الفرس من أعلاه. ينظر:

لسان العرب: 339/2- 202/14-349/15-672/1-90/4-90/12-356/2-205/5.

* - المصروم: المقطوع. ينظر: لسان العرب: 336/12.

³³⁷ - الكامل: 89/2.

4- التشبيه البعيد:

من تشبيهات القرآن يذكر المبرد آيتين كريمتين فيقول: « و قال الله عزّ و جلّ، و هذا البين الواضح ﴿حَمَلُوا الْحِمَارَ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ و السفر الكتاب. و قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾.

يرى المبرد أن هذه الآية تشتمل على تشبيه لأن السامع قد يظن أن الله سبحانه و تعالى شبه الذين حملوا التوراة بالحمار الذي يحمل الكتب و لا يعلم ما فيها لأنهم لم يعوا لغبائهم ما فيها، لكن المراد أنهم تعاملوا عنها و أضربوا عن حدودها و أمرها و نهيها و لم يطبقوا ما فيها.

أمّا عن التشبيه البعيد في أشعار العرب فقد اختار المبرد قول « الشاعر:

بَلْ لَوْ رَأَيْتَنِي أُخْتُ جِيرَانِنَا *** إِذْ أَنَا فِي الدَّارِ كَأَنِّي حِمَارُ

فإنّما أراد الصّحّة فهذا بعيد لأنّ السامع إنّما يستدل عليه بغيره».³³⁸

إنّ الذي جعل التشبيه بعيدا في هذا البيت هو أنّ قصد الشاعر يختلف عمّا يفهمه الناس من التشبيه، فالسامع يتبادر إلى ذهنه، و لأوّل وهلة، إنّما القصد من التشبيه بالحمار وصفه بالبلادة و الغباء و سوء التصرف و لا يطرق ذهنه أن مراد الشاعر من تشبيه نفسه بالحمار أنّه في غاية الصّحّة و كمال القوة.

و لا شكّ أن الوصول إلى هذا المقصد يحتاج إلى التفسير و التأويل لأنه غير بين و غير واضح، و السامع يستدل عليه بغيره كما يقول المبرد.

ثم إنّ تعليق المبرد تضمن تفسيراً طريفاً للإبعاد في قوله: "لأنّ السامع إنّما يستدل عليه بغيره" و هو يشير إلى « وجه من وجوه إدراك المعنى حيث تفسر اللّغة باللّغة و يقوم الاستعمال الدارج مقام العلامة الراشدة في المعنى. فكأنّه تتكون لدى

³³⁸ - الكامل: 103/2.

الإنسان بمفعول الزمن، ردود فعل معينة تبادر بها، متى وقع المنبّه، إلى معنى دون معنى آخر، فإذا خرج مستعمل تلك العبارة عن المعنى اللصيق بها يكون أبعد، و لاسيما إذا تعلق الأمر بالأمثال المشتركة الشائعة مثل المثال السابق³³⁹.

و هذا النوع من التشبيه ليس عيبا لأن المراد منه دفع السامع إلى التمعن و اختبار فطنته.

5- التشبيه المليح³⁴⁰:

من مليح التشبيه عند المبرّد قول القائل³⁴¹:

لَعَيْنَاكَ يَوْمَ الْبَيْنِ أَسْرَعُ وَ أَكْفَا *** مِنْ الْفَيْنِ الْمَمْطُورُ وَ هُوَ مَرُوحٌ

و يعتبر المبرّد هذا البيت مليحا لأنّ الشاعر سبّه دموع عيني محبوبته يوم الفراق بالغصن الذي يقع المطر على ورقه، ثم تهب الريح فيتساقط ماء المطر من الورق قطرات، و هي صورة رائعة.

و بعد ذكر هذا البيت أراد المبرّد أن يمثل للتشبيه المليح في أشعار المحدثين فقال: « ثم نذكر بعد هذا طرائف من تشبيه المحدثين و ملاحاتهم فقد شرطناه في الباب إن شاء الله. قال أبو العباس: و من أكثرهم تشبيها لاتساعه في القول و كثرة تعنّته و اتساع مذاهبه »³⁴² الحسن بن هانئ³⁴³، قال في مديحه الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك:

³³⁹ - التفكير البلاغي عند العرب: 366-367.

³⁴⁰ - للتوسع ينظر: الكامل: 104/2-109.

³⁴¹ - الكامل: 104/2.

³⁴² - نفسه: 105/2.

³⁴³ - ديوان أبي نواس: 221.

وَكُنَّا، إِذَا مَا الْحَائِنُ الْجَدَّ غَرَّهٗ *** سَنَى بَرْقٍ غَاوٍ أَوْ ضَجِيجُ رِعَادٍ

تَرَدَّى لَهُ الْفَضْلُ بِنُ يَحْيَى بِنُ خَالِدٍ *** بِمَاضِي الطُّبَى أَزْهَاهُ طُولُ نَجَادٍ

أَمَامَ خَمِيسٍ أَرْجَوَانٍ كَأَنَّهُ *** قَمِيصٌ مَكُوكٌ مِنْ قَنَا وَ جِيَادٍ*

فَمَا هُوَ إِلَّا الدَّهْرُ يَأْتِي بِصَرْفِهِ *** عَلَى كُلِّ مَنْ يَشْقَى بِهِ وَ يُعَادِي .

و يبدأ المبرّد كعادته بشرح الكلمات الغامضة فيقول: « قوله الحائن الجدّ، يقال: حان الرجل إذا دنا موته. و يقال: رَجُلٌ حَائِنٌ، و المصدر الحَيْنُ، و الجدّ الحظّ، و الجدّ و الجدّة مفتوحان، فإذا أردت المصدر من جددت في الأمر قلت أجدّ جدّا مكسور الجيم. و يقال جددت النخل أجدّه جدّا إذا صرّمته. و يقال: جذذته جدّا و تركت الشيء جذاذا إذا قطّعتة قطعاً». ³⁴⁴

ثم يسترسل المبرّد في الشرح بذكر أبيات أخرى فيشرحها كما فعل مع الأولى ثم يعود لشرح أبيات أبي نواس فيقول: « و قوله: سنى برق غارٍ، و السنى من الضياء مقصور. قال الله جلّ و عزّ: ﴿يَكَاذِبُنَا رَبُّهُمْ بَرَقَ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ ، و السنه من المجد الممدوح... و ضربه الحسن ههنا مثلاً و جمع الرّعد فقال رعاذ كقولك: كلب و كلاب و كعب و كعاب. و قوله بماضي الطّبي، ظبّة كل شيء حدّه، يقال: وخزه بظبّة السيف يراد بذلك حدّ طرفه. و قوله أزهار طول نجاد، النجاد حمائل السيف، و أزهاره رفعه و أعلاه... و الأرجوان الأحمر». ³⁴⁵

و اعتبر المبرّد هذا التشبيه مليحاً لأن الشاعر يقول إنه ينقض بجيش أحمر من الدماء، و كأنه قميص حيّك من الرماح و من الخيول.

* - خميس: الجيش المؤلف من خمسة فرق. مكوك: مزدحم. قنا: الرماح. ينظر: لسان العرب: 490/10-70/6-

102/13.

³⁴⁴ - الكامل: 105/2.

³⁴⁵ - نفسه: 107-106/2.

6- التشبيه الجيد³⁴⁶:

إنَّ التشبيه الجيّد هو المظهر العملي لقدرات الشاعر الذهنية الخاصة لا تتوافر فيمن حوله من البشر العاديين، و هي قدرات تمكّنه من أن يعرف -أكثر مما يعرفون- و يدرك- أكثر مما يدركون- العلاقات الكامنة بين الأشياء.³⁴⁷

لذا فإن التشبيه الجيّد عند المبرّد هو « قرين الفطنة و التعرف على ما لا يعرفه الآخرون »³⁴⁸، و يظهر ذلك حين قال: « أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا أشبه، و أحسن منه ما أصاب به الحقيقة و نبّه فيه بفطنته على ما يخفى عليه ».³⁴⁹
و من الشعراء الذين عدّهم المبرّد ذوي فطنة مكّنتهم من قول الشعر الذي يحتوي على التشبيه الجيّد طرفة: « و من التشبيه الجيّد في هذا الشعر الذي ذكرنا »³⁵⁰
قوله³⁵¹:

تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجًا إِلَى بَابِ دَارِهِ *** كَأَنَّهُمْ رِجَالًا دَبَى وَ جَرَادٍ

فَيَوْمٌ لِلْحَاقِ الْفَقِيرِ بِذِي الْغِنَى *** وَ يَوْمٌ رِقَابٍ بُوَكِرَتْ لِحْصَادِ

شبه الشاعر هنا ازدحام الناس أمام دار ممدوحه بالجراد و ديب الأرجل.
و يدرج المبرّد بعد هذه الأبيات لطرفة الشاعر الجاهلي أبياتا أخرى لشاعر محدث هو أبو نواس الحسن بن هانئ فقال: « و من التشبيه الجيّد قوله »³⁵² أي أبي نواس الحسن بن هانئ³⁵³:

³⁴⁶ - للتوسع ينظر: الكامل: 108/2-109.

³⁴⁷ - ينظر: الصورة الفنية: 131.

³⁴⁸ - الموشح: مأخذ العلماء على الشعراء في عدّة أنواع من صناعة الشعر- للمرزباني- تحقيق علي محمد البجاوي- دار

الفكر العربي- ط1- 1385هـ/1965م: 116.

³⁴⁹ - الكامل: 172/1.

³⁵⁰ - نفسه: 108/2.

³⁵¹ - لم أجد البيت في الديوان.

³⁵² - الكامل: 108/2.

فَكَأَنِّي بِمَا أُزَيِّنُ مِنْهَا *** قَعْدِي يُزَيِّنُ التَّحَكِيمَا*

يقول الشاعر : إنه كالقعدي ، يقعد عن شربها و يكتفي بوصفها كالخوارج الذين قعدوا عن الجهاد و حسنوا أمر التحكيم .

و في هذا الموضع يذكر لنا المبرد سبب قول هذا البيت فيقول: « و في سبب هذا الشعر أن الخليفة تشدد عليه في شرب الخمر و حبسه من أجل حبسا طويلا»³⁵⁴. فقال³⁵⁵:

أَيُّهَا الرَّائِحَانِ بِاللَّوْمِ لَوْمَا *** لَا أَذُوقُ الْمِدَامَ إِلَّا شَمِيمَا

نَالِي بِالْمَلَامِ فِيهَا إِمَامٌ *** لَا أَرَى لِي خِلَافَهُ مُسْتَقِيمَا

فَاصْرِفَاهَا إِلَيَّ سِوَايَ فَإِنِّي *** لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمَا

كُبِّرَ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ *** أَنْ أَرَاهَا وَ أَنْ أَشَمَّ النَّسِيمَا

فَكَأَنِّي بِمَا أُزَيِّنُ مِنْهَا *** قَعْدِي يُزَيِّنُ التَّحَكِيمَا

لَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرْ *** بِ فَأَوْصَى الْمَطِيقَ إِلَّا يُقِيمَا

و يبدو أن من أسباب جودة التشبيه عند المبرد السبق إلى المعنى لأنه علّق على هذه الأبيات بقوله: « فهذا المعنى لم يسبق إليه أحد».³⁵⁶

³⁵³ - ديوان أبي نواس: 536.

* - القعدي: طائفة من الخوارج كانت تحسن القعود عن الجهاد، بعد أن أوشكوا على الهلاك من كثرة من قتل منهم. شرح

ديوان أبي نواس: 536.

³⁵⁴ - الكامل: 108/2.

³⁵⁵ - ديوان أبي نواس: 536.

³⁵⁶ - الكامل: 108/2.

7- التشبيه الحسن³⁵⁷:

من التشبيهات التي نالت استحسان المبرد قول جرير في صفة الخيل³⁵⁸:

يَشْتَفْنَ لِلنَّظَرِ الْبَعِيدِ كَأَنَّمَا *** إِرْنَانُهَا بِوَائِنِ الْأَشْطَانِ*

و شرحه بقوله: « يشتنف و يتشوفن في معنى واحد. قوله: و كأنما إرناها ببوائن الأشتان، أراد شدة صهيلها. يقول كأنما يصهلن في آبار واسعة تبين أشتانها عن نواحيها. و الأشتان الحبال³⁵⁹. ».

و من حسن التشبيه أيضا عند المبرد قول عنتره³⁶⁰:

غَادَرْنَ نَضْلَةً فِي مَعْرِكٍ *** يَجُرُّ الْأَسِنَّةَ كَالْمُحْتَطِبِ

و سبب اسحسان المبرد للبيت أن عنتره شبه المطعون بالرماح و هو يغادر المعركة بحامل الحطب .

و بما أن المبرد قد وعدنا في أول كلامه عن التشبيه بأنه سيورد تشبيهات المحدثين فإنه ذكر أبياتا لبشار اعتبرها من حسن التشبيه فقال: « و من حسن تشبيه المحدثين³⁶¹. قول بشار³⁶²:

³⁵⁷-من أراد التوسع فليُنظر: الكامل: 47/2-78-91.

³⁵⁸- البيت غير موجود في الديوان.

*- إرنان: الصوت الشديد. الأشتان: الحبل الطويل الشديد الفتل يستسقى به و تشد به الخيل. ينظر: لسان العرب:

187/13-237/13.

³⁵⁹- الكامل: 49/2.

³⁶⁰- البيت غير موجود في الديوان.

³⁶¹- الكامل: 112/2.

³⁶²- ديوان بشار ابن برد- جمع و تحقيق و شرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور- الشركة التونسية للتوزيع- ط1-

1976م: 70/4.

وَكَأَنَّ تَحْتَ لِسَانِهَا *** هَارُوتَ يَنْفُثُ فِيهِ سِحْرًا

وَ نَحَالُ مَا جَمَعْتُ عَلَيْهِ *** بَنَانُهَا ذَهَبًا وَ عِطْرًا

استحسن المبرد في هذا البيت لأن بشار شبه تأثير كلام محبوبته في نفس سامعها بتأثير السحر و هو مأخوذ من قول النبي -صلى الله عليه و سلم- " إن من البيان لسحرا ". و لما اشتهر هاروت بتمام المقدرة على السحر بالغ في السحر المشبه به بأنه سحر هاروت ، و ذكر هاروت تخييل. و جعل هاروت نافثا لأنهم يعالجون السحر بالنفث في العقد كما جاء في سورة الفلق.

و استحسن المبرد بعض التشبيهات التي وردت في كلام العرب المنشور و قدمها لنا قائلا: « و التشبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس. و قد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم و عن أصل أخذوه أن شبّهوا عين المرأة و الرجل بعين الظبي أو البقرة الوحشيّة و الأنف بحدّ السيف، و الفم بالخاتم و الشعر بالعناقيد و العنق بإبريق فضة و السّاق بالجمّار* ، فهذا كلام جار على الألسن». ³⁶³
و قد قال سراقه بن مالك بن جعشم: « فرأيت رسول الله -صلى الله عليه و سلم- و ساقاه باديتان في غرزه كأثما جمارتان ». ³⁶⁴

* - الجمار: قلب النخلة و شحمها. شبه ساقه ببياضها. ينظر: لسان العرب: 147/4.

³⁶³ - الكامل: 103/2-104.

³⁶⁴ - نفسه: 104/2.

8- التشبيه العجيب³⁶⁵:

و نجد المبرّد يتعجّب من بعض التشبيهات و يفرّق بينها و بين التمثيل في قوله: « و من تمثيل امرئ القيس العجيب»³⁶⁶ قوله³⁶⁷:

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا *** وَ أَرْحُلُنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقِّبْ *

شبه امرؤ القيس هنا صورة عيون الوحش و هي تدور حول خيامهم ليلا بالجزع قبل أن يثقب و تضعه النساء.

و قال أيضا: « و من أعجب التشبيه»³⁶⁸ قول النابغة³⁶⁹:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي *** وَ إِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ

و قوله³⁷⁰:

خَطَاطِيفُ حُجْنٍ فِي حِبَالٍ مَتِينَةٍ *** تَمُدُّ بِهَا أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعُ *

إن عناصر هذا التشبيه الحسي مستمدة من البيئة الجاهلية، حيث رهبة الليل و حيث يندر الماء، فيحتال للحصول عليه بالخطاطيف و الحبال و من الآبار.

³⁶⁵ - للتوسع ينظر: الكامل: 41/2-42-46-49.

³⁶⁶ - الكامل: 41/2.

³⁶⁷ - ديوان امرئ القيس: 70.

* - الجزع: خرز يمانى. ينظر: لسان العرب: 337/8.

³⁶⁸ - الكامل: 41/2.

³⁶⁹ - ديوان النابغة الذبياني: 81.

³⁷⁰ - الكامل: 41/2.

* - خطاطيف: ج/ الخطاف: حديدة حنّاء تعقل بها البكرة من جانبيها. حجن: مائلة أو معوجة. نوازع: متخاصمون. ينظر: لسان العرب: 351/8-108/13-77/9.

و قوله أيضا³⁷¹:

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَ الْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ *** إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكَبٌ

فالناطقة يشبهه في هذا البيت ممدوحه بالشمس، و يشبه غيره من الملوك بالكواكب لأن عظمة ممدوحه تغض من عظمة كل ملك كما تخفي الشمس كما تخفي الشمس الكواكب، و لما كانت حال الممدوح و غيره من الملوك، و كل منهما مشبه، مجهولة غير معروفة، فقد أتى بالمشبه به لبيان أن حال الممدوح مع غيره من الملوك، كحال الشمس مع الكواكب، فإذا ظهر أخفاهم كما تخفي الشمس الكواكب بطلوعها.

9- التشبيه المصمود:

من التشبيه المصمود عند المبرد قول الشاعر³⁷²:

طَلِيقُ اللَّهِ لَمْ يَمْنُنْ عَلَيْهِ *** أَبُو دَاوُدَ وَ ابْنُ أَبِي كَثِيرٍ

وَ لَا الْحَجَّاجُ عَيْنِي بِنْتِ مَاءٍ *** تُقَلِّبُ طَرْفَهَا حَذَرَ الصُّقُورِ

و يشرح المبرد الأبيات و يعلل نوعا ما سبب وصفها بالمحمودة قائلا: « و هذا غاية في صفة الجبان، و نصب عيني بنت ماء على الذم و تأويله أنه إذا قال: جاءني عبد الله الفاسق الخبيث. فليس يقول: إلا و قد عرفه بالخبث و الفسق، فنصبه بأعني و ما أشبهه من الأفعال نحو أذكر، و هذا أبلغ من الذم أن يقيم الصفة مقام الاسم. و كذلك المدح»³⁷³. و قول الله تبارك و تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾³⁷⁴ بعد قوله: ﴿لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾³⁷⁵ إنما هو على هذا، و من زعم أنه أراد و من

³⁷¹ - الكامل: 41/2.

³⁷² - نفسه: 44/2.

³⁷³ - نفسه: 44/2.

³⁷⁴ - سورة النساء: 162.

³⁷⁵ - سورة النساء: 162.

المقيمين الصَّلَاةَ فمخطئ في قول البصريين لأَنَّهُمْ لَا يعطفون الظاهر على المضمَر المخفوض. و من أجازه من غيرهم فعلى قبح كالضرورة».³⁷⁶

10- التشبيه المختصر:

إنَّ المبرّد كما حبّد الكلام المختصر المفهوم نجده هنا أيضا يتحدّث عن التشبيه المختصر فيقول: « و العرب تختصر في التشبيه، و ربّما أومأت به إيماء قال أحد الرّجّاز:

بِتَنَا بِحَسَانٍ وَ مِعْزَاهُ تَتَبُّطٌ *** مَا زِلْتُ أَسْعَى بَيْتَهُمْ وَ أَلْتَبُطُ*

حَتَّى إِذَا كَانَ الظَّلَامُ يَخْتَلِطُ *** جَاؤُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذُّئْبَ قَطُ**

يقول في لون الذئب، و اللَّبَن إذا جهد و خلط بالماء ضرب إلى البعثة».³⁷⁷
و من التشبيه المختصر أيضا أنشد الأصمعي فقال³⁷⁸:

وَ تَشْرِبُهُ مُحَضًّا وَ تَسْقِي عِيَالَهَا *** سَجَاحًا كَأَقْرَابِ الثَّعَالِبِ أَوْرَقًا

« السَّحَاج الرِّقِيق الممذوق و القربان الجنبان و الواحد قرب. من ذلك قول عمر بن الخطاب -رحمه الله- لرسول الله -صلى الله عليه و سلم- و قد شاور في رجل جنى جناية و جاء قومه يشفعون له، فشفع له قوم آخرون. فقال له عمر: يا رسول الله، أرى أن توجع قريبه. فقال القوم: يا رسول الله إنَّك لن تشتدَّ على أمتك بقول عمر، فنزل إليه جبريل -صلى الله عليه و سلم- فقال له ثلاثا: يا محمد، القول

³⁷⁶ - الكامل: 44/2.

*-تنط: مدت أصواتها. ألتبط: التمرغ و التقلب. ينظر: لسان العرب: 388/7-257/7.

** - مذق: اللبَن. ينظر: لسان العرب: 340/10.

³⁷⁷ - الكامل: 113/2. إن المشبه و المشبه به في هذا البيت يلحان من التركيب، و هذا الضرب من التشبيه سماه

المتأخرون التشبيه الضمني، و مثله قول أبي فراس:

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ *** وَ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلَمَاءِ يُفَنِّدُ الْبَدْرُ

³⁷⁸ - نفسه: 113/2.

قول عمر شدّ الإسلام بعمر. فخرج رسول الله (ص) فضرب الرجل. و الأوراق لون بين الخضرة و السّود، يقال: جمل أوراق بين الورقة، و هو ألام ألوان الإبل عند العرب، و أطيبها لحماً».³⁷⁹

11- تشبيهات غريبة مفهومة³⁸⁰:

يعتبر المبرد بعض التشبيهات غريبة و رغم ذلك يجدها مفهومة من ذلك قول جرير³⁸¹ في يزيد بن عبد الملك، و أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان:

الْحَزْمُ وَالْجُودُ وَالْإِيمَانُ قَدْ نَزَلُوا *** عَلَى يَزِيدَ أَمِينِ اللَّهِ فَاحْتَفَلُوا

ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ وَالْإِيمَانِ غُرَّتُهُ *** كَالْبَدْرِ لَيْلَةً كَادَ الشَّهْرُ يَنْتَصِفُ*

و قال أبو عبد الرحمن العطوي³⁸²:

قَدْ رَأَيْنَا الْعَزَالَ وَالْعُصْنَ وَالنَّجْمَيْنِ شَمْسَ الضُّحَى وَ بَدْرَ الظَّلَامِ

فَوَحَقَّ الْبَيَانَ يَعْضُدُهُ الْبُرُ *** هَانُ فِي مَاقِطٍ أَلَدَّ الْخِصَامِ*

مَا رَأَيْنَا سِوَى الْمَلِيحَةِ شَيْئًا *** جَمَعَ الْحُسْنَ كُلَّهُ فِي نِظَامِ

فَهِيَ تَجْرِي مَجْرَى الْأَصَالَةِ فِي الرَّأْيِ *** يَ وَ مَجْرَى الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَامِ

و يشرح المبرد الغريب في هذه الأبيات بقوله: « البرهان الحجة »³⁸³، قال الله

عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾³⁸⁴. أي « حججكم، و المأقط

³⁷⁹ - الكامل: 114-113/2.

³⁸⁰ - للتوسع ينظر الكامل: 57-56/2.

³⁸¹ - ديوان جرير: 307.

* - الدسيعة: العطية. الغرة: بياض في الوجه. ينظر: لسان العرب: 14/5-85/8.

³⁸² - الكامل: 56/2.

* - يعضد: يعين. مأقط: الموضع الذي يقتلون فيه. ينظر: لسان العرب: 258/7-293/3.

³⁸³ - الكامل: 56/2.

³⁸⁴ - سورة البقرة: 111

موضع الحرب فضربه مثلاً لموضع المناظرة و الحاجة، و الألد الشديد الخصومة»³⁸⁵.
 قال تبارك و تعالى: ﴿لَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾³⁸⁶ و قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِطَامِ﴾³⁸⁷.
 و علّق المبرّد قائلاً: « فهي تشبيهات غريبات مفهومة».³⁸⁸

12- التشبيه المطرد:

من التشبيه المطرد على ألسنة العرب حسب المبرّد: « ما ذكروا في سير الناقة
 و حركة قوائمها. قال الراجز»³⁸⁹:

كَأَنَّهَا لَيْلَةٌ غَبَّ الْأَزْرَقُ *** وَ قَدْ مَدَدْنَا بِاعِهَا لِلشُّوقِ

قوله: « ليلة غبّ الأزرق، إنّما يعني موضعاً و أحسبه ماء لأنهم يقولون نطفة زرقاء و هي
 الصافية».³⁹⁰

و قال الشّماخ³⁹¹:

كَأَنَّ ذِرَاعِيهَا ذِرَاعًا مُدِلَّةً *** بُعِيدَ السَّبَابِ حَاوَلْتُ أَنْ تَعَذَّرَا

مِنَ الْبَيْضِ أَعْطَافًا إِذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ *** فِرَاسَ بَنٍ غَنَمٍ أَوْ لَقَيْطَ بَنٍ يَغْمَرَا

بِهَا شَرْقٌ مِنْ زَعْفَرَانٍ وَ عُنْبَرٌ *** أَطَارَتْ مِنْ الْحُسْنِ الرِّدَاءُ الْمُحَبَّرَا

تَقُولُ وَ قَدْ بَلَّ الدُّمُوعُ حِصَارَهَا *** أَبَى عِقَّتِي وَ مَنْصِييَ أَنْ أُعَيَّرَا

³⁸⁵ - الكامل: 56/2.

³⁸⁶ - سورة مريم: 97.

³⁸⁷ - سورة البقرة: 204.

³⁸⁸ - الكامل: 56/2.

³⁸⁹ - نفسه: 84/2.

³⁹⁰ - نفسه: 84/2.

³⁹¹ - ديوان الشماخ: 134-136..

كَأَنَّ بِذِفْرَاهَا مَنَادِيلَ فَارَقَتْ *** أَكُفَّ رِجَالٍ يَغْصِرُونَ الصَّنَوْبَرَا

كَأَنَّ ابْنَ آوَى مُوثِقٌ تَحْتَ غَرْضِهَا *** إِذَا هُوَ لَمْ يُكَلِّمْ بِنَائِيهِ ظُفْرَا

فالشاعر هنا « شبه يديها بيدي مدلة بجمال و منصب قد سابّت و أقبلت تعتذر و تشير بيديها، فوصف جمانا الذي به تدلّ و منصبها المتصل بمن ذكرته. و قوله: أطارت من الحسن الرّداء المحبّر، يقول هي مدلة بجمالها فلا تحتمر فتستر شيئا عن الناظر لأنها تبتهج بكل ما في وجهها و رأسها».³⁹²

كما أورد المبرد مجموعة من التشبيهات التي عرفها العرب و تعود عليها منها تشبيه النساء ببيض النعام. فقال: « و العرب تشبه النساء ببيض النعام تريد، نقاءه و نعمة لونه»³⁹³. و قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾³⁹⁴.

و قال أيضا: « فالمرأة تشبّ بالسحابة لتهاديها، و سهولة مرّها»³⁹⁵. قال الأعشى³⁹⁶:

«كَأَنَّمِشَيْتَهَا مِنْ بَيْتٍ جَارَتْهَا *** مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثُ ۖ وَ لَا عَجَلُ

الريثهو: « الإبطاء فهذا ما تلحقه العين منها فإما الخفة فهي كأسرع مارّ و إن خفي ذلك على البصر».³⁹⁷ ومثلها قول الله عزّ و جلّ: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)³⁹⁸.

³⁹² - الكامل: 85/2.

³⁹³ - نفسه: 54/2.

³⁹⁴ - سورة الصافات: 49.

³⁹⁵ - الكامل: 55/2.

³⁹⁶ - ديوان الأعشى- دار صادر بيروت- ط1- 1414هـ/1994م: 144.

³⁹⁷ - الكامل: 55/2.

³⁹⁸ - سورة النمل: 88.

والعرب تشبّه المرأة « بالشمس و القمر، و الغصين و الغزال و البقرة
الوحشية و السحابة البيضاء و الدرّة و البيضة و إنّما تقصد من كلّ شيء إلى
شيء »³⁹⁹

كما وردت في القرآن الكريم نفس التشبيهات التي كان يشبه بها العرب المرأة
و من ذلك قوله تعالى : : ﴿ كَانَتْ هُنَّ الْيَاقُوتَ وَ الْمَرْجَانُ ﴾⁴⁰⁰ . و قال تبارك
وتعالى: ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾⁴⁰¹ ، و المكنون « المصون. يقال كنت الشيء إذا صنته
و أكننته إذا أخفيتّه فهذا المعروف⁴⁰² ». كما استشهد المبرد بأبيات لذي الرمة و هي⁴⁰³:

و مِيَّةٌ أَحْسَنُ الثَّقَلَيْنِ جِدًّا *** وَ سَالِفَةٌ وَ أَحْسَنُهُمْ قَدًّا

فَلَمْ أَرْ مِثْلَهَا نَظْرًا وَ عَيْنًا *** وَ لَا أُمَّ الْغَزَالِ وَ لَا الْغَزَالَ

تُرِيكَ بَيَاضَ غُرَّتِهَا وَ وَجْهًا *** كَقَرْنِ الشَّمْسِ أَفْتَقَ ثُمَّ زَالَ

أَصَابَ خَصَاصَةً فَبَدَأَ كَلِيلًا *** كَلًّا وَ أَنْغَلَ سَائِرُهُ أَنْغَلًا

حلّ المبرد هذه الأبيات فقال: « الجيد العنق و السالفة ناحية و القذلان ناحيتا
القفا من الرأس. و قوله أفثق ثم زالا يقال: أفثق السحاب إذا انكشف انكشافه
فكانت فيه فرجة "يسيرة" بين السحابتين تقول العرب دام علينا الغيم، ثم أفثقنا.

³⁹⁹ - الكامل: 55/2.

⁴⁰⁰ - سورة الرحمن: 58.

⁴⁰¹ - سورة الواقعة: 23.

⁴⁰² - الكامل: 55/2-76.

⁴⁰³ - ديوان ذي الرمة: 372-373. و الأبيات جاءت بلفظها و تمامها

تُرِيكَ بَيَاضَ لَبَّتِهَا وَ وَجْهًا *** كَقَرْنِ الشَّمْسِ أَفْتَقَ حِينَ زَالَ

أَصَابَ خَصَاصَةً فَبَدَأَ كَلِيلًا *** كَلًّا وَ أَنْغَلَ سَائِرُهُ أَنْغَلًا

وَ مِيَّةٌ أَحْسَنُ الثَّقَلَيْنِ خَدًّا *** وَ سَالِفَةٌ وَ أَحْسَنُهُ قَدًّا

وَ لَمْ أَرْ مِثْلَهَا نَظْرًا وَ عَيْنًا *** وَ لَا أُمَّ الْغَزَالِ وَ لَا الْغَزَالَ

و إذا نظر إلى الشمس و القمر من فتق السحاب فهو أحسن ما يكون و أشدّه استشارة. و قوله كلا يريد فيسرعة ما بدا ثم غاب⁴⁰⁴ «.

و من التشبيهات القليلة الاستعمال عند العرب تشبيه المعلوم بالجهول أو ما سماه و البلاغيون بالتشبيه "الوهمي"، و هو ما ليس مدركا بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، لكنه لو وجد فأدرك، لكان مدركا بها، كقول امرئ القيس⁴⁰⁵:

أَتَوَعِدُنِي وَ الْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي *** وَ مَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنِّيَابِأَغْوَالِ

فالشياطين* و الغول و أنيابهما مما لا يدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة و لكنها لو وجدت فأدركت لكان إدراكها عن طريق حاسة البصر. و قد ذكر المبرد أمثلة أخرى لهذا النوع من التشبيه منها قول الراجز⁴⁰⁶:

أَبْصَرْتُهَا تَلْتَهُمَا الثُّعْبَانَا *** شَيْطَانَةٌ تَزَوَّجَتْ شَيْطَانَا

كما وقف المبرد كسابقيه يدافع على الصورة القرآنية في قوله تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ شَيْطَانٍ﴾.

فقال: «إنما يمثل الغائب بالحاضر و رؤوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها و هؤلاء في هذا القول؟»⁴⁰⁷.

كما قال الله عزّ و جلّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾⁴⁰⁸، و هذه الآية «قد جاء تفسيرها ضربين، أحدهما: أن هناك جرا يقال له الأستن منكر الصورة يقال لثمره: رؤوس الشياطين، و هو الذي ذكره النابغة في قوله: "تحيد من

⁴⁰⁴ - الكامل: 55/2.

⁴⁰⁵ - ديوان امرئ القيس: 142.

* - من عادة العرب أن يشبهوا كل قبيح الصورة بالشيطان لأن له صفة بشعة في توهمهم، و أن يشبهوا حسن الصورة بالملك بفتح اللام لحسن صورته في توهمهم.

⁴⁰⁶ - الكامل: 81/2.

⁴⁰⁷ - الكامل: 79/2.

⁴⁰⁸ - سورة يونس: 39.

أستن سود أسالفه". و زعم الأصمعيّ أنّ هذا الشجر يسمّى الصوم. و القول الآخر: و هو الذي يسبق إلى القلب أن الله جلّ ذكره شنّع صورة الشياطين في قلوب العباد. و كان ذلك أبلغ من المعاينة ثم مثّل هذه الشجرة بما تنفر منه كلّ نفس»⁴⁰⁹.

و بهذا التحليل يبيّن لنا المبرّد سلامة هذا الأسلوب و مكانته في البلاغة. «و لئن لم ينبن الدّفاع على رؤية فنيّة متكاملة، فقد تضمّن معطيات ذات بال من أهمّها التأكيد، في بناء الصورة و شكل التعبير، على الغرض أي على علاقة المتقبل بالنص، و الحالة التي يروم الكاتب إحداثها فيه فيتحوّل، تبعاً لذلك، مركز الاهتمام من البحث عن إمكانية الصورة أو استحالتها إلى النظر في وظيفتها و إيفائها بالغرض.

ثم إنّ الصورة لا تنفصل فاعليتها عن السياق الجملي الذي وردت فيه، لأنّه يرغمها و يمهّد لتوظيفها التوظيف اللائق بها. فالتشبيه برؤوس الشياطين في القرآن لا بد أن يقترن بصورة الشيطان فيه و ما بلغه ذلك التصوير من ترسيخ فكرة القبح و البشاعة»⁴¹⁰.

و يؤكّد المبرّد موقفه فيذكر شواهد على استعمال العرب لكلمة "شيطان: في الشعر متتبعاً معانيها. و ينتهي إلى تقرير المعنى لذي ارتضاه و هو أن الشيطان الذي طبع الله صورته الشنيعة في قلوب العباد فأصبحت تعيها وعي العين كأنما هي كائنة.

و بهذا يخالف المبرّد جماعة من اللّغويين الذين زعموا أن الشيطان قد يكون من الإنس أو الجنّ فقال: «و زعم أهل اللّغة أن كلّ متمرّد من جن أو إنس يقال له

⁴⁰⁹ - الكامل: 79/2.

⁴¹⁰ - التفكير البلاغي عند العرب: 269.

شيطان. و أن قولهم: تشيطن. إنما معناه، تحبث و تنكر «⁴¹¹. وقد قال الله عزّ و جلّ: ﴿شَاطِطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ﴾⁴¹².

- تشبيه المحدثين:

قسّم المبرد تشبيه المحدثين بالإضافة إلى التقسيمات السابقة إلى قسمين:

1- من تشبيه المحدثين المستطرف:

مثل له بقول بشار⁴¹³:

كَأَنَّ فُؤَادَهُ كُرَّةٌ تُنْزَى *** حِذَارَ الْبَيْنِ إِنْ نَفَعَ الْحِذَارُ*

(يُرْوَعُهُ السَّرَارُ بِكُلِّ أَمْرٍ *** مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ السَّرَارُ)

شبه الشاعر في البيت الأول فؤاده في اضطرابه و خفقانه بالكرة و هو تشبيه بديع لما فيه من ابتكار التشبيه بالكرة الذي لم يسبق إليه. و يتوقف المبرد إزاء مجموعة من التشبيهات تصوّر المصلوب، و هو مشهد مألوف في الشعر العباسي. يقول: و قال دعبل بن عليّ في صفة مصلوب⁴¹⁴ في محاربة الزطّ سنة 619م:

⁴¹¹ - الكامل: 81/2.

⁴¹² - سورة الأنعام: 112.

⁴¹³ - ديوان بشار بن برد: 224/3. و اللفظ بتمامه:

يُرْوَعُهُ السَّرَارُ بِكُلِّ أَمْرٍ *** مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ السَّرَارُ
كَأَنَّ فُؤَادَهُ يُنْزَى حِذَارًا *** حِذَارَ الْبَيْنِ لَوْ نَفَعَ الْحِذَارُ

يضع بعض الدارسين لأقسام التشبيه عند المبرد هذا البيت ضمن التشبيه المفرط عند المحدثين. ينظر: علم البيان لعبد العزيز عتيق: 74.

* - كرة: قطعة من جلد تخاط من عدة قطع لتكون مستديرة، ثم تحشى بصوف أو شعر. تنزى: الوثوب.

⁴¹⁴ - ديوان دعبل بن علي الخزاعي- جمعه و حققه محمد يوسف نجم- نشر و توزيع دار الثقافة بيروت- لبنان- ط1- 1409هـ/1989م: 100.

لَمْ أَرِ صَفًّا مِثْلَ صَفِّ الرُّطِّ *** تَسْعِينَ مِنْهُمْ صُلُبُوا فِي خَطِّ

مِنْ كُلِّ عَالٍ جَذَعُهُ بِالشَّطِّ *** كَأَنَّهُ فِي جَذَعِهَا الْمَشْتَطِّ

أَخُو نُعَاسٍ جَدَّ فِي التَّمْطِيِّ *** قَدْ حَامَرَ النَّوْمَ وَ لَمْ يَغِطْ

و قال أعرابي في صفة مصلوب و هو الأخطل⁴¹⁵:

كَأَنَّهُ عَاشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ *** يَوْمَ الْفِرَاقِ إِلَى تَوْدِيعِ مُرْتَحِلٍ

أَوْ قَائِمٌ مِنْ نُعَاسٍ فِيهِ لُونَتُهُ *** مُوَاصِلٌ لِتَمْطِيهِ مِنَ الْكَسَلِ

و قال حبيب بن أوس⁴¹⁶:

قَدْ قُلِّصَتْ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيطَتِهِ *** فَخِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْبِيسِ مُبْتَسِمًا

-و يعجب المبرد بهذه التشبيهات لأنها « تشبيهات مستطرفة، تقوم على الجمع الحاذق للأشياء المتباعدة، و إصابة شبه يجعل بينها مناسبة و اشتراكا، و لا شيء أبعد عن العاشق من المصلوب »⁴¹⁷.

و إعجاب المبرد بمثل هذه الأبيات أو التشبيهات إعجاب مبرر، لأنه لم ينظر إلى التشبيه من جانبه النفسي، بل نظر إليه من زاوية منطقية، تعتمد على إمكانية التوافق الذهني في الهيئة المجردة بين المصلوب و بين كل هؤلاء الذين شبه بهم الشاعر .

⁴¹⁵ - الكامل: 54/2- قال الحسن: الأخطل الذي يعني رجل محدث من أهل البصرة، و يعرف بالأخيطل و يلقب ببرقوقا.

⁴¹⁶ - نفسه: 59/2.

⁴¹⁷ - الصورة الفنية: 218.

2- تشبيهه سخف:

قال الحسن بن هانئ في صفة الخمر⁴¹⁸:

فَإِذَا مَا لَبَسَتْهَا فَهَبَاءٌ *** تَمْنَعُ اللَّمَسَ مَا يُبِيحُ الْعِيُونََا

دَرَسَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا *** وَتَبْقَى لِبَائِهَا الْمَكُونَا

فَهَيَّكَزَّكَانَّهَا كُلُّ شَيْءٍ *** يَتَمَنَّى مُحَيَّرٌ أَنْ يَكُونَا

فِي كُؤُوسٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ *** جَارِيَاتُ بُرُوجِهَا أَيْدِينَا*

طَالِعَاتٌ مَعَ السُّقَاةِ عَلَيْنَا *** فَإِذَا مَا غَرَبْنَ يَغْرُبُنْفِينَا

رأى المبرد أن هذه القطعة « من التشبيه غاية على سخف كلام المحدثين »⁴¹⁹.

و نلاحظ في كلام المبرد « اعتراضا فقهيا على كلام أبي نواس من اختلاف في الفكر بين الرجلين فهو لا يقبل قول الشاعر: "كأنها كل شيء يتمنى محيرا أن تكونا".

و رؤية المبرد تنطلق من هذا الفكر السلفي المؤمن بثوابت لا تتغير، و الموقن يتفوق السلف و تخلف الخلف، و إنكار كل جديد مبتدع و النظر إليه نظر الشك و الريبة »⁴²⁰.

⁴¹⁸ - ديوان أبي نواس: 593 و قد جاءت هذه الأبيات بتمامها و لفظها.

مَنْ سَلَفَ كَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ *** يَتَمَنَّى مُحَيَّرٌ أَنْ يَكُونَا
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا *** وَ تَبْقَى لِبَائِهَا الْمَكُونَا
فَإِذَا مَا اجْتَلَيْنَهَا، فَهَبَاءٌ *** يَمْنَعُ الْكَفَّ مَا يُبِيحُ الْعِيُونََا
فِي كُؤُوسٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ *** جَارِيَاتٌ، بُرُوجُهَا أَيْدِينَا
طَالِعَاتٌ مَعَ السُّقَاةِ عَلَيْنَا *** فَإِذَا مَا غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِينَا

« فهذا تشبيه مفرط يصفه المبرد بأنه غاية على سخف كلام العرب ». ينظر: علم البيان لعبد العزيز عتيق: 75.
* - يشبه كؤوس الخمرة بالنجوم الجارية بين أيدي الندامة.

⁴¹⁹ - الكامل: 51/2.

⁴²⁰ - تاريخ النقد الأدبي و البلاغة: 377.

لقد أطلق المبرّد على التشبيهات التي أوردها كثيرا من المسميات المختلفة التي تدل على حسنّها و ملاحظتها، و لكنه في النهاية أرجعها إلى أربعة، فيقول: « و العرب تشبّه على أربعة أضرب فتشبيه مفرط و تشبيه مصيب، و تشبيه مقارب و تشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير و لا يقوم بنفسه. و هو أحسن الكلام »⁴²¹.
و لقد تعامل المبرّد مع أقسام التشبيه من زاويتين⁴²²:

أ-زاوية النعوت و الأحكام الموظفة لإبراز المفعول الجمالي، و حظّه من الحسن و فضل تشبيهه على آخر في ذلك، و في الكامل من هذه الأشياء الكثير. فمن التشبيهات العجيب، و المصيب، و الحسن و الحسن جدّا، و الجيد، و الحلو، و المليح، و المفرط، و القاصد، و الطريف، و الغريب، و المطرد، و السخيف، و الجامع، و المختصر...

و يبدو أن المبرّد كان مولعا بالإكثار من الأسماء التي يطلقها على التشبيه و أنواعه، و لكنه لم يكن دقيقا في إطلاق هذه المسميات المختلفة، إذ أننا لا نلاحظ فروقا جوهرية بين كثير من هذه الألوان، مما يجعلنا نظن أنه لم يكن يقصد من وراء هذا الإفراط في التسمية إلا التنويع في الأسماء، دون أن يتعدى ذلك جوهر المسميات، حيث لا اختلاف بينها.

ب-الزاوية الثانية أدقّ من الأولى، و أكثر صرامة، لأنها تركّز التقسيم على أساس ثابت، و نظرية مسبقة عن علاقة الفن بموضوعه، و الصورة بمثلها. فالتشبيه يقع من القصد الذي عقد من أجله في أربعة محال، فأما أن يصيبه فيسمّى "مصبيا" و أما أن يقع قريبا منه و يسمى "مقاربا" و أما أن يبتعد و يسمى "بعيدا" و أما يتجاوز الحدّ فيسمى "مفرطا".

⁴²¹- الكامل: 101/2.

⁴²²- ينظر: التفكير البلاغي عند العرب: 365.

و لكن لم يبتدع المبرّد هذه الأقسام ابتداءً، فهو أول من جمعها في حيّز واحد
و خصّ كل قسم بشواهد شعرية تعين على بلورة المعنى المراد في المصطلح
المستعمل.

و يمكن أن نجزم بأن أقسام التشبيه و نعوته، عند المبرّد، هي أوفى ما وصلنا عن
البلاغة العربية. و لذلك سيتبنّى البلاغيون آراءه و لن يطوّرها إلا من جهة الفروع
بالمبالغة في التقسيم أو توليدها و إضافة الشواهد من المنظوم و المنثور و لن يقفوا بها
عند حدود التشبيه، بل سوف يستعملونها في معالجة كلّ الصور المتولدة عنه
و لاسيما الاستعارة، مع أنّهم سيخرجون الإفراط عن حدود التشبيه الضيقة
و يصيغون منه قضية عامة من قضايا التعبير الأدبي.

الفصل الثالث

أثر المبرد في المتأخرين

الفصل الثالث: أثر المبرد في المتأخرين

تمهيد

أولاً: ابن المعتز

ثانياً: قدامة بن جعفر

ثالثاً: عبد القاهر الجرجاني

رابعاً: الخطيب القزويني

خامساً: أثره في مختلف مواضيع البلاغة و اللغة

1-التعقيد المعنوي

2-التعقيد اللفظي

3-التجريد

4-اللف و النشر

5-أثره في فقه اللغة

ملخص:

ليس هناك علم من العلوم النظرية أو التجريبية برز إلى الحياة مكتمل الأصول و الظواهر و إنما الذي ثبت على مرّ التاريخ أن أي فرع من فروع المعرفة ينشأ نشأة، يبدأ بلبنة أو لبنات قليلة، ثم تتكاثر هذه اللبنة، و تتطور بجهود المشتغلين بذلك العلم و الدارسين له، و ما يلبث أن ينضج و يزدهر.

و هكذا كانت مساهمة المبرد في مجملها لبنة أساسية استفاد منها المتأخرون و أعانتهم على بناء علم قائم بذاته خاصة حين درس التشبيه و قسمه و عند إجابته عن سؤال الكندي إذ فتح بإجابته تلك بابا واسعا أمام النحاة و البلاغيين بعده فاستفاضوا في الدرس إلى أن توصلوا إلى وضع نظرية أضرب الخبر.

و أبرز هؤلاء المتأخرين الذين أخذوا عن المبرد ابن المعتز و قدامة و عبد القاهر و الخطيب القزويني.

أولاً: ابن المعتز (ت 296هـ)

تتلمذ عبد الله ابن المعتز على يد المبرد في الأدب و العربية⁴²³ «و كان المبرد يبيئه كثيراً و يقيم عنده إذا خرج من عند القاضي اسماعيل بن إسحاق لقرب داره من دار ابن المعتز، و كان للمبرد مجلس في مسجده، و كانت بينهما مناقشات كثيرة في الأدب و الشعر و النقد»⁴²⁴.

كما تتلمذ أيضاً على يد أبو العباس ثعلب (ت 291هـ)، و هو إمام الكوفيين في النحو و اللغة⁴²⁵.

⁴²³ - ينظر: تاريخ بغداد: 10 / 195 .

⁴²⁴ - ابن المعتز و تراثه في الأدب و النقد و البيان- محمد عبد المنعم خفاجي- دار الجيل- بيروت- ط2- 1411هـ-1991م

: 77-76

⁴²⁵ - ينظر: تاريخ بغداد : 10/195 .

و رغم أن ابن المعتز « قد تأثر في كتابه "البديع" بأستاذه ثعلب و بكتابه "قواعد الشعر" و سار على نهجه في العرض و ذكر الأمثلة لبعض الألوان البديعية و دراستها: كالتشبيه و الاستعارة و الإفراط و لطافة المعنى و حسن الخروج... »⁴²⁶ إلا أنني لاحظت عند تصفحي لباب التشبيه في كتابه "البديع" أنه استخدم المصطلحات نفسها التي استعملها المبرد في الكامل من ذلك قوله: "و من التشبيه الحسن"⁴²⁷ و "و من أحسن التشبيهات"⁴²⁸ أو "و من التشبيهات العجيبة".⁴²⁹ قد تكون هذه المصطلحات منتشرة في ذلك العهد و لم يكن للمبرد السبق في ذكرها و لا لابن المعتز أخذها عنه، لكنني أحببت أن أتوه بهذه الملاحظة.

ثانياً: قدامة بن جعفر (ت 337هـ)

لقد أفاد قدامة بن جعفر في حديثه عن معنى التشبيه مما سبق أن قاله المبرد و ما قاله ابن طباطبا (ت 320)، مع احتفاظه بشخصيته و استقلال تفكيره في اختيار الصيغة الملائمة من وجهة نظره، و اختيار الشواهد الشعرية، و الحديث عن كيفية تصرف الشعراء في التشبيه و ما إلى ذلك، و لعلنا نتبين وجه إفادته من المبرد و ابن طباطبا إذا اقتبسنا تصور كل منهما للتشبيه ثم أعقبناهما بما قاله هو:

يقول المبرد: « و اعلم أن للتشبيه حداً، لأن الأشياء تشابه من وجوه، و تباين من وجوه، فإنما ينظر إلى التشبيه من أين وقع، فإذا شبه الوجه بالشمس و القمر فإنما يراد به الضياء و الرونق، و لا يراد به العظم و الإحراق ».⁴³⁰

⁴²⁶ - ابن المعتز و تراثه في الأدب و النقد و البيان: 590.

⁴²⁷ - البديع: تصنيف عبد الله بن المعتز المتوفى سنة 296هـ- اعتنى بنشره و تعليق المقدمة و الفهارس اغناطيوس كراتشوفسكي- دار المسيرة- ط2- 1399هـ- 1979م. أعادت طبعه بالأوقست مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب.

⁴²⁸ - نفسه: 68.

⁴²⁹ - نفسه: 69.

⁴³⁰ - الكامل: 54/2.

و يقول ابن طباطبا: « و التشبيهات على ضروب مختلفة، فمنها تشبيه الشيء بالشيء صورة و هيئة، و منها تشبيه به معنى، و منها تشبيه به حركة و بطئا و سرعة، و منها تشبيهه به لونا و منها تشبيهه به صوتا. و ربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض، فإذا اتفق في الشيء المشبه معيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوى التشبيه و تأكد الصدق فيه، وحسن الشعر به، للشواهد الكثيرة المؤيدة له ⁴³¹.
أما قدامة فيقول: « إنه من الأمور المعلومة أن الشيء لا يشبه بنفسه و لا بغيره كل الجهات إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه، و لم يقع بينهما تغاير ألبته اتحدا، فصار الاثنان واحدا، فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما و يوصفان بها، و افتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها. و إذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيهما، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد ⁴³².
إن نص قدامة يتضمن فكرتين أولهما أن الأمرين اللذين يعقد التشبيه بينهما لا بد أن يكون بينهما اتفاق في بعض الوجوه أو الصفات، و اختلاف في أخرى و هذه الفكرة تضمنها كلام المبرد، و الفكرة الثانية أنه كلما كثرت مواضع الاشتراك بين طرفي التشبيه زاد ذلك في حسنه، و هذه الفكرة تبدو صريحة في عبارة ابن طباطبا. و لا ينال كل ذلك بالطبع من جهد قدامة الكبير في بلورة كثير من الصور البلاغية ⁴³³.

⁴³¹ - عيار الشعر محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (المتوفي سنة 322هـ) - دراسة و تحقيق و تعليق: محمد زغول سلام- منشأة المعارف بالإسكندرية- ط3- دت : 23.

⁴³² - نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر - تحقيق و تعليق محمد عبد المنعم خفاجي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- دت: 109.

⁴³³ - ينظر: البحث البلاغي عند العرب تأصيل و تقييم لشفيع السيد- دار الفكر العربي- ط2- 1416هـ- 1996م: 93.

كما نلاحظ تأثر قدامة بالمبرد عندما تحدث عن التشبيه في كتابه نقد النثر، إذ عقد له بابا فيه و عرفه تعريفا يعيد إلى الأذهان ما سبق قوله في كتاب الكامل للمبرد حيث قال: « و أما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب و فيه تكون الفطنة و البراعة عندهم، و كلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف، كان بالشعر أعرف، و كلما كان بالمعنى أسبق، كان بالحذق أليق ». ⁴³⁴

و قسمه إلى قسمين: تشبيه ظاهري و تشبيه معنوي: فقال: « و التشبيه ينقسم قسمين: تشبيه للأشياء في ظواهرها و ألوانها و أقدارها كما شبهوا اللون بالخمرة، و القد بالغصن و كما شبه الله النساء في رقة ألوانهن بالياقوت، و في نقاء أبشارهن بالبيض ». ⁴³⁵ و استشهد بقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، و بقول الشاعر: ⁴³⁶

كَأَنَّ بَيْضَ نَعَامٍ فِي مَلَا حِفْهَا *** إِذَا اجْتَلَاهُنَّ قَيْظٌ لَيْلُهُ وَمَدُّ

و قول آخر:

أَيَا شَبَهَ لَيْلَى لَا تُرَاعِي فَإِنِّي *** لَكَ الْيَوْمَ مِنْ بَيْنِ الْوُحُوشِ صَدِيقُ

فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَ جِيدُكِ جِيدُهَا *** خَلَا أَنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْكِ دَقِيقُ

و قول آخر:

وَرَدْتُ اعْتِسَافًا وَ الشُّرْيَا كَأَنَّهَا *** عَلَى قِمَّةِ الرَّأْسِ ابْنِ مَاءٍ مُحَلَّقِ

⁴³⁴ - نقد النثر لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- 1402هـ- 1982م:

58.

⁴³⁵ - نفسه: 58.

⁴³⁶ - نفسه: 58.

و هذا التفسير للتشبيه الظاهري قريب من قول المبرد، و شاهده الأول هو نفس شاهد المبرد.

أما القسم الثاني منه فهو تشبيه في المعاني، كتشبيه الشجاع بالأسد، و الجواد بالبحر، الحسن الوجه بالبدر، و كما شبه الله أعمال الكافرين في تلاشيها مع ظنهم أنها حاصلة لهم بالسراب الذي إذا دخله الظمان الذي قد وعد نفسه به لم يجده شيئاً. و كما شبه من لا ينتفع بالموعظة بالأصم الذي لا يسمع ما يخاطب به. و شبه من ظل عن طريق الهدى بالأعمى الذي لا يبصر ما بين يديه⁴³⁷ و أدرج قدامة بن جعفر ضمن هذا النوع من التشبيه بيتاً للناطقة الذبياني كان المبرد قد وضعه ضمن التشبيه العجيب و هو قوله:⁴³⁸

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي *** وَ إِنِ خِلْتُ أَنَّ الْمَيْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

و قول الآخر:

هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتُهُ *** فَلَجَّتْهُ الْمَعْرُوفُ وَ الْجُودُ سَاحِلُهُ

و يختم الباب بقوله: « و هذا كثير في القول و في القرآن و الشعر، و ما ذكرنا منه دليل على ما تركنا إن شاء الله ».⁴³⁹

إن هذا النوع من التشبيه المعنوي ليس جديداً على النقد القرآني وإنما وجد قبل قدامة في الدراسات القرآنية السابقة، فقد تنبه السابقون إلى وجه الشبه و المشبه به المعنوي في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾⁴⁴⁰ إلى آخر الآية. و في

437- نقد النثر: 59.

438- نفسه: 59.

439- نفسه: 59.

440- سورة الجمعة: 62

قوله تعالى: ﴿إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَبِّ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾⁴⁴¹

و غيرها ، و التشبيه في أمثلة قدامة السابقة يجري على تشبيه شيء معنوي بآخر حسي و هما من بحوث البلاغيين في التشبيه، إذ قسموه إلى أقسام.

مثال: محمد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)

لقد تأثر الإمام الشيخ عبد القاهر الجرجاني « مؤسس علمي البلاغة و مقيم ركنيها "المعاني و البيان" »⁴⁴² بما ورد عن المبرد من ملاحظات و أفكار و سار على نهجها حتى تمكن من فتح الأبواب أمام البلاغيين لينجزوا فصلا تحدثوا فيه عن ضروب الإسناد الخبري.

و أهم تلك الملاحظات التي صدرت عن المبرد و التي تنبه لها عبد القاهر الجرجاني تلك التي وردت عند إجابته عن سؤال الكندي⁴⁴³، حيث روى الأنباري أنه قال: « ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس و قال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة و المعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم: إخبار عن قيامه، و قولهم: إن عبد الله قائم: جواب عن سؤال سائل، و قولهم: إن عبد الله لقائم: جواب عن إنكار منكر قيامه، فقلت تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. قال فما أحرار المتفلسف جوابا »⁴⁴⁴.

⁴⁴¹ - سورة الصافات: 64-65 .

⁴⁴² - دلائل الإعجاز: 6.

⁴⁴³ - هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، ولد عام 189هـ/803م في الكوفة و توفي عام 260هـ/873م. ينظر

الأعلام: 235/5 .

⁴⁴⁴ - دلائل الإعجاز: 209.

تمعن عبد القاهر في الإجابة و تبنى فكرة المبرد التي تقول: المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ « و غاص في أحشائها، و استنزف كل النتائج التي تسمح باستخلاصها، و انتهى في دراسته لعلاقة اللفظ بالمعنى ».⁴⁴⁵

إن قضية العلاقة بين اللفظ و المعنى شغلت بال العلماء السابقين و قد أولوها العناية التامة و درسوا اللفظ مستقلا عن المعنى، و بعضهم انحاز إلى جهة اللفظ، و أقام حججا و أدلة، و بعضهم رأى تعانق اللفظ و المعنى، لكن عبد القاهر الجرجاني « ناقش المسألة و أعاد النظر فثار ضد الذين فصلوا بين اللفظ و المعنى و ضد المنحازين إلى جهة اللفظ ».⁴⁴⁶

و وضع عبد القاهر ما قاله المبرد في باب اللفظ و النظم و بين الفروق الدقيقة التي خفيت على الفيلسوف الكندي، و فطن إليها المبرد النحوي .⁴⁴⁷

و شبه هذه العلاقة بالعلاقة بين الوعاء و الموعى⁴⁴⁸ فقال: « حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق، فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم و الترتيب و أن يكون الفكر في النظم الذي يتواصله البلغاء فكرا في النظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تحيىء بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن و وهم يتخيل إلى من لا يوفي النظر حقه ».⁴⁴⁹

و عبد القادر عندما بسط آراءه و تصوراتيه و أفكاره لم يمل من الاحتجاج على طريقة الجد ليين، و البرهان على أن النظم واقع في المعاني و أن الألفاظ تابع لها في

⁴⁴⁵-التفكير البلاغي: 359.

⁴⁴⁶ - نظرية النظم- صالح بلعيد- دار هومة- الجزائر- ط1- 2002: 138.

⁴⁴⁷ - ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي: 212.

⁴⁴⁸-ينظر: النص الشعري و مشكلات التفسير - عاطف جودة نصر- مكتبة لبنان- ط1- 1996: 82.

⁴⁴⁹-دلائل الإعجاز: 53.

مواقعها، و قد استند في برهانه و حجاجه إلى تصورين « يؤول أولهما إلى الفروق الفردية و يؤول ثانيهما إلى الفكرة و التأمل، فالفروق الفردية في إدراك النظم و الوقوف عليه، و الحاجة في إدراكه إلى قدح الفكر و إعمال التأمل و التروي، تدل من قريب على أن النظم إنما يقع في المعاني بديا ».⁴⁵⁰

و إلى هذين التصورين أشار الجرجاني في قوله: « ... لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حدوها لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا واحدا و لا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجمله الآخر.

و أوضح من هذا كله و هو أن النظام الذي يتواصله البلغاء و تتفاصل مراتب البلاغة من أجله صنعه يستعاض عليها بالفكر لا محالة ».⁴⁵¹

لقد انتهى فكر الجرجاني من خلال النظم إلى تصور أن العبرة ليست بالألفاظ من جهة التوالي نطقا أو رسما، و إنما العبرة بما تنطوي عليه الألفاظ من دلالات، لا يظهر لنا بضرب من تفكيك الألفاظ و عزل بعضها عن بعض، و إنما يتجلى في علاقات التركيب اللغوي داخل سياق من التفاعل.

يبين ذلك قوله: « كقولهم "لفظ متمكن" يريدون أنه بموافقة معناه لمعنى ما يليه كالشيء الحاصل في مكان صالح يطمئن فيه و "لفظ قلق ناب" يريدون أنه من أجل أن معناه غير موافق لما يليه كالحاصل في مكان لا يصلح له فهو لا يستطيع الطمأنينة فيه، إلى سائر ما يجيء فيه في صفة مما يعلم أنه مستعار له من معناه، و أنهم نحلوه إياه بسبب مضمونه و مؤداه ».⁴⁵²

⁴⁵⁰ - النص الشعري و مشكلات التفسير: 82.

⁴⁵¹ - دلائل الإعجاز: 52.

⁴⁵² - نفسه: 59.

يمثل عبد القاهر نقطة الذروة في الحديث عن نظرية النظم العربية، فلم تأت آراؤه حول النظم من العدم، بل كانت تتويجا لاجتهادات البلاغيين و النحاة من قبله، بعضهم دخل في دائرة مفهوم النظم، دون أن يذكر المصطلح و بعضهم الآخر ناقش المفهوم و استخدم المصطلح.⁴⁵³

و حلل عبد القاهر قول المبرد: « فقولهم: عبد الله قائم: إخبار عن قيامه، و قولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، و قولهم: إن عبد الله لقائم: جواب عن إنكار منكر قيامه، فقلت تكررت الألفاظ لتكرر المعاني » في كتابه دلائل الإعجاز ضمن فصل سماه: إنّ و مواقعها، بدأه بقوله: « و إذا كان الكندي يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوب مستفهم أو معترض فما ظنك بالعامّة و من هو في عداد العامة و من لا يخطر شبه هذا بباله ». ⁴⁵⁴

و نجد عبد القاهر الجرجاني تارة يلقي اللوم على الكندي لأنه لم يتفهم الفرق بين الجمل فيقول: « و اعلم أن ههنا دقائق لوان الكندي استقرى و تصفح و تتبع مواقع "إنّ" ثم ألطف النظر و أكثر التدبر لعلم علم ضرورة أن ليس سواء دخولها و أن لا تدخل... و أدل على أن ليس سواء دخولها و أن لا تدخل من أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها و تأتلف معه و تتحد به حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا و كأن أحدهما قد سبك في الآخر؟ هذه هي الصورة حتى إذا جئت إلى "إنّ" فأسقطتها رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأول و تجافى معناه عن معناه و رأيت لا يتصل به و لا يكون منه ». ⁴⁵⁵

⁴⁵³-ينظر المرايا المفجرة- "نحو نظرية نقدية عربية"- عبد العزيز حمودة- الكويت سلسلة عالم المعرفة- إصدار المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب أغسطس- 2001م: 222.

⁴⁵⁴-دلائل الإعجاز: 209.

⁴⁵⁵- نفسه: 209.

و تارة أخرى يعطى للكندي عذرا فيقول: « و إذا كان خلف الأحمر* و هو القدوة و من يؤخذ عنه و من هو بحيث يقول الشعر فينحله الفحول الجاهليين فيخفي ذلك له يجوز أن يشته ما نحن فيه عليه حتى يقع له أن ينتقد على بشار فلا غزو أن تدخل الشبهة في ذلك على الكندي». ⁴⁵⁶

ينتقل عبد القاهر بعد ذلك لتوضيح قول أبي العباس فيقول: « فأما الذي ذكر عن أبي العباس من جعله لها جواب سائل إذا كانت وحدها و جواب منكر إذا كان معها اللام فالذي يدل على أن لها أصلا في الجواب أنا رأيناهم قد ألزموها الجملة من المبتدأ و الخبر إذا كانت جوابا للقسم نحو "و الله إن زيدا منطلق" و امتنعوا من أن يقولوا: و الله زيد منطلق: ثم إننا إذا استقرينا الكلام وجدنا الأمر بينا في الكثير من مواقعها أنه يقصد بها إلى الجواب كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ ⁴⁵⁷ « ⁴⁵⁸.

و يعود عبد القاهر إلى الأصل في ذكر "إن" في الكلام فيقول: «ثم إن الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه البناء هو الذي دون في الكتب من أنها للتأكيد و إذا كان قد ثبت ذلك فإذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن في خلافه ألبته و لا يكون قد عقد في نفسه أن الذي تزعم أنه كائن غير كائن و أن الذي تزعم أنه لم يكن كائن فأنت لا تحتاج هناك إلى "إن"» ⁴⁵⁹.

* - خلف الأحمر: هو خلف بن حيان، أبو محرس المعروف بالأحمر، راوية، عالم بالأدب شاعر من أهل البصرة توفي:

180هـ/796م. ينظر: الأعلام: 310/2

⁴⁵⁶ - دلائل الإعجاز: 211-212.

⁴⁵⁷ - سورة الكهف: 83-84.

⁴⁵⁸ - دلائل الإعجاز: 214.

⁴⁵⁹ - نفسه: 215.

و بين حاجة الكلام إلى "إِنَّ" إذا كان المتلقي يظن خلاف ما تقول، ثم ذكر عبد القاهر وجه الحسن في استعمال "إِنَّ" فقال: « و لذلك تراها تزداد حسنا إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله في الظن و بشيء قد جرت عادة الناس بخلافه كقول أبي نواس* :
عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِنَ النَّاسِ *** إِنَّ غِنَى نَفْسِكَ فِي الْيَأْسِ

فقد ترى حسن موقعها، و كيف قبول النفس لها، و ليس ذلك إلا لأن الغالب على الناس أنهم لا يحملون أنفسهم على اليأس و لا يدعون الرجاء و الطمع و لا يعترف كل أحد و لا يسلم أن الغنى في اليأس، فلما كان كذلك كان الموضع موضع فقر إلى التأكيد فلذلك كان من حسنها ما ترى⁴⁶⁰.

و من لطيف مواقع "إِنَّ" عنده أن يدعى على المخاطب ظن لم يظنه و لكن يراد التهكم به و أن يقال إن حالك و الذي صنعت يقتضي أن تكون قد ظننت ذلك و مثال ذلك قول الأول:

جَاءَ شَقِيقُ عَارِضًا رُحْمُهُ *** إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحُ

يقول: « إن مجيئه هكذا مدلاً بنفسه و بشجاعته قد وضع رمحاً عرضاً ليل على إعجاب شديد و على اعتقاد منه أنه لا يقوم له أحد حتى كأن ليس مع أحد هنا رمح يدفعه به و كأننا كلنا عزل⁴⁶¹. »

أما إذا كانت "إِنَّ" جواب سائل فيشترط عبد القاهر أن يكون للسائل ظن في المسؤول عنه على خلاف ما أنت تجهيه به فأما أن يجعل مجرد الجواب أصلاً فيه فلا، لأنه يؤدي أن لا يستقيم لنا إذا قال الرجل: « كيف زيد؟ أن تقول: صالح و إذا قال:

* - ديوان أبي نواس: 319 و البيت بتمامه و لفظه
عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِنَ النَّاسِ *** إِنَّ الْغِنَى، وَيَحْكُ، فِي الْيَأْسِ.
⁴⁶⁰-دلائل الإعجاز: 215.
⁴⁶¹-نفسه: 216.

و يؤثر فيه في نفس الوقت و لوجود طرفين في القضية يتظافر و ر الفعل على توليد الخبر و إنشائه، بحسب المنبه أو عدم توفره.⁴⁶⁶

إن عبد القاهر الجرجاني هو الذي فتح الباب أمام البلاغيين حيث توصلوا من خلاله إلى تأليف فصل تحدثوا فيه عن ضروب الإسناد الخبري إذ يذهبون إلى أن العبارة الأولى في كلام الكندي لخالي الذهن و الغرض منها إفادة الحكم، أما الثانية فللسائل و الغرض منها تأكيد الحكم، و أما الثالثة فللمنكر و الغرض منها المبالغة في التأكيد. و ذهب عبد القاهر إلى أن خالي الذهن و الشاك المتردد لا يؤكد لهما الكلام، إذ قال أنه يحسن التأكيد إذا كان المخاطب له ظن في خلاف الحكم المؤكد و عقد قلبه على النفي، على أنه فتح الباب لتأكيد الكلام في الصورة الأولى لأسباب بيانية، و هو ما سماه البلاغيون بعده بالخروج على مقتضى الظاهر.

و يظهر تأثر عبد القاهر الجرجاني بالمبرد أيضا عند حديثه عن التشبيه حيث تناول بعض الأبيات التي ذكرها المبرد، من هذه الأبيات بيت امرئ القيس المشهور:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَ يَابِسًا *** لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَ الْحَشْفُ الْبَالِي

كان موقف عبد القاهر من البيت في جوهره موقف المبرد، لكن عبد القاهر يتميز بالقدرة على رد إعجابه إلى علل و أسباب لم تكن ثقافة المبرد تتيحها.

فهو يشارك المبرد الإعجاب به لكنه لا يسرف في تقديره لأن عبد القاهر لم يكن « يخلع قيمة كبيرة على الأبيات التي تتوالى فيها التشبيهات و تجتمع معا دون أن يتشكل منها بناء مركب »⁴⁶⁷، دليل ذلك قوله: « ... لم يقصد إلى أن يجعل بين الشيئين اتصالا وإنما اجتماعا في مكان فقط. كيف و لا يكون لمضامة الرطب من القلوب إلى اليابس هيئة يقصد ذكرها، أو يعنى بأمرها، كما يكون ذلك لتباشير الصبح

⁴⁶⁶ - ينظر: التفكير البلاغي عند العرب: 260.

⁴⁶⁷ - التفكير البلاغي عند العرب: 218.

في أثناء الظلماء، و كون الشقيقة على قامتها الخضراء، فيؤدي ذلك الشبه الحاصل من مداخلة أحد المذكورين الآخر و اتصاله به اجتماع الحشف البالي و العناب كيف و لا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف أكثر من كونهما في مكان واحد أو أن اليابسة من القلوب كانت مجموعة من ناحية و الرطبة كذلك في ناحية أخرى لكان التشبيه يحاله. و ذلك لو فرقت التشبيه ههنا فقلت كأن الرطب من القلوب عناب و كأن اليابس حشف بال لم تر أحد التشبيهين موقوفا في الفائدة على الآخر». ⁴⁶⁸

أما الفضيلة التي يجدها عبد القاهر في بيت امرئ القيس فيوجزها في قوله: « و إذ قد عرفت هذه التفاصيل فاعلم أن ما كان من التركيب في الصورة بيت امرئ القيس فإنما يستحق الفضيلة من حيث اختصار اللفظ و حسن الترتيب فيه لا لأن للجمع فائدة في عين التشبيه ». ⁴⁶⁹

و لقد حاول بشار بن برد تقليد بيت امرئ القيس بقول بيت يشبهه فقال: « ما قرّ بي قرار مذ سمعت قول امرئ القيس حتى صنعت ⁴⁷⁰ »:

كَأَنَّ مُنَّارَ النَّعْجِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا *** وَ أَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ ⁴⁷¹.

و فضل عبد القاهر الجرجاني بيت بشار لأنه يقوم على صورة مركبة، تتجانس عناصرها و تتركب و تأتلف ائتلاف الشكلين يسيران إلى شكل ثالث إذ يقول فيه: « نجد لبيت بشار من الفضل و من كرم الموقع و لطف التأثير في النفس ما لا يقل

⁴⁶⁸ - أسرار البلاغة في علم البيان: الإمام عبد القاهر الجرجاني- صححها على نسخة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده التي قرأها دروسا في الجامع الأزهر- و أودع فيها جل تعليقاته على حواشيها و علق حواشيها محمد رشيد رضا- دار المعرفة بيروت- لبنان- ط2- د.ت: 168.

⁴⁶⁹ - أسرار البلاغة: 168-169.

⁴⁷⁰ -ديوان بشار: 114/1.

⁴⁷¹ - العمدة: 490/1.

مقداره، و لا يمكن إنكاره، و ذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره و هو أن جعل الكواكب تهاوى فأتى الشبه، و عبر عن هيئة السيوف و قد سلت من الأغمد و هي تعلق و ترسب، و تجيء و تذهب».⁴⁷²

أعجب عبد القاهر بهذا البيت إعجابا شديدا لأنه أظهر هيئة السيوف في حركتها عند احتدام الحرب و اختلاف الأيدي بها في الضرب و اضطرابها و لأن الشاعر نظم هذه الدقائق كلها في نفسه ثم أحضر صورها بلفظة واحدة و نبه عليها بأحسن التنبيه و أكمله بكلمة و هي قوله (تهاوى) لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها، و كان لها في تهاويها توقع و تداخل ثم إنها بالتهاوي تستطيل أشكالها، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهي على صورة الاستدارة.⁴⁷³

إن هذا الفهم للتشبيه يكشف عن نظرة أنضج من فهم المبرد. و لا شك أنها نابعة من مفهوم النظم عند عبد القاهر، و متصلة بتفرقة المحددة بين وقوع التشبيه في الصفة نفسها، و بين وقوعه في حكم لهاو مقتضى، و هذان جانبان لم يكن المبرد يعيهما جيدا. و مع ذلك فإن فهم عبد القاهر للتشبيه «يقوم أساس على فكرة الإصابة الأساسية عند المبرد، إذ بدون الإصابة لا يمكن أن يصح التشبيه، لا في الصفة —باعتبارها الأسبق في التصور— و لا في حكمها أو مقتضاها».⁴⁷⁴

كما وقف عبد القاهر الجرجاني أمام تشبيهات المصلوب التي ذكرها المبرد و هي قول الشاعر:

كَأَنَّهُ عَاشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ *** يَوْمَ الْوَدَاعِ إِلَى تَوْدِيعِ مُرْتَحِلٍ

أَوْ قَائِمٍ مِنْ نُعَاسٍ فِيهِ لُوثُهُ *** مُوَاصِلٌ لِمَتَطْيِهِ مِنَ الْكَسَلِ

⁴⁷² - أسرار البلاغة: 151.

⁴⁷³ - ينظر: أسرار البلاغة: 151.

⁴⁷⁴ - الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي: 219.

و عدها من لطيف جنس "التشبيه من هيئات الحركة و السكون" لكثرة ما في البيتين من التفصيل و هي فكرة لم ترد على بال المبرد.

و يرى عبد القاهر أن الشاعر لو قال: « كأنه متمط من نعاس و اقتصر عليه كان قريبا من المتناول لأن الشبه إلى هذا القدر يقع في نفس الرائي المصلوب لكونه من حد الحملة، فأما بهذا القيد و على هذا التقييد الذي يفيد به استدامة تلك الهيئة فلا يحضر إلا مع سفر من الخاطر و قوة من التأمل و ذلك لحاجته أن ينظر إلى غير جهة فيقول هو كالمتمطي ثم يقول المتمطي يمد ظهره و يده مدة ثم يعود إلى حالته فيزيد فيه أنه مواصل لذلك، ثم إذا أراد ذلك طلب علته و هي قيام اللوثة و الكسل في القائم من النعاس. و هذا أصل فيما يزيد به التفصيل و هو أن يثبت في الوصف أمر زائد على المعلوم المتعارف ثم يطلب له علة و سبب ». ⁴⁷⁵

و معنى هذا أن براعة التشبيه قائمة على نوع من الحصر المنطقي لكل أجزاء المشابهة و لو تساءلنا عن بعد النفسي للتشبيه لما وجدنا شيئا. أن عبد القاهر ينظر إلى التفصيل باعتباره فعلا من أفعال الحصر المنطقي، الذي يقوم على أقصى درجات التجريد، و يعتمد على الجهد الصناعي الخالص أكثر مما يعتمد على الانفعالات و المشاعر الإنسانية. ⁴⁷⁶

إن قول عبد القاهر يعد استمرارا طبيعيا لموقف قديم، فمثل هذه الأحكام على التشبيه تقوم على نفس المبادئ التي ينطلق منها المبرد في القرن الثالث... صحيح أن أحكام عبد القاهر تستند -أكثر من غيرها- إلى ثقافة كلامية و فلسفة أوسع و أعمق، و صحيح أيضا أن عبد القاهر حاول أن يقدم تصورا متكاملا للتشبيه، و لكن نضج تصور عبد القاهر و اكتماله ما كان يجعله يختلف عن سابقه اختلافا

⁴⁷⁵ - أسرار البلاغة: 163.
⁴⁷⁶ - ينظر: الصورة الفنية: 220.

جذريا فيما يتصل بطبيعة النظرة إلى العلاقة الأساسية التي يفترض أن يقوم عليها التشبيه.

و بهذا فإن الفارق بين عبد القاهر و بين سابقيه - في هذا المجال - فارق ثانوي، لأن النظرة التي ينظر الجميع على أساسها إلى التشبيه واحدة في جوهرها، إذ يظل الأساس واحدا و تظل صحة التشبيه و صوابه مرتبطة بتناسبه المنطقي، و مدى دقة المطابقة العقلية و المادية بين أطرافه.

و مجمل القول إن الدارسين القدامى « قد ساروا بالتشبيه شوطا بعيدا، و خطوا في بحثه و استقصاء محاسنه خطوات متقدمة، فتوسعوا فيه، و أضاف اللاحق منهم إلى جهود سابقيه الشيء الكثير، فقد عرفوه؛ و ذكروا أقسامه، و أركانه، و حدوده، و صفاته، و محاسنه و عيوبه، كما أفاضوا في الحديث عن الغرض منه و فائدته في الكلام.

و لعل أكثر من وقف مع التشبيه مطولا هو الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه "أسرار البلاغة" الذي جعله خاصا بمباحث البيان، فقد عرض في إسهاب لصور التشبيه المختلفة، و فرق بين أنواع التشبيهات، و وجوه الشبه فيها، كما فرق بين التشبيه الذي جعله عاما و التمثيل الذي جعله خاصا⁴⁷⁷.

رابعاً: الخطيب القزويني (ت 735هـ)

يعد الخطيب القزويني من البلاغيين الذين استفادوا من تحليل عبد القاهر الجرجاني لجواب المبرد، إذ خصص فصلا في كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة" للحديث عن "أحوال الإسناد الخبري" بدأه بالحديث عن فائدة الخبر و لازم فائدة الخبر ثم انتقل

⁴⁷⁷ - صور البيان في تفسير الزمخشري: عبد الجليل مصطفى - رسالة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في اللغة - 1421هـ/2000م: 43-44.

إلى أضرب الخبر فقال: « و إذا كان غرض المخبر بخبره إفادة المخاطب أحد الأمرين فينبغي أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة .

فإن كان المخاطب خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر، و التردد فيه، استغنى عن مؤكدات الحكم، كقولك: " جاء زيد، و عمرو ذاهب " فيتمكن في ذهنه لمصادفته إياه حالياً.

و إن كان متصور الطرفين، متردداً في إسناد أحدهما إلى الآخر، طالباً له، حسن تقويته بمؤكد، كقولك: " لزيد عارف " أو " إن زيدا عارف " .

و إن كان حاكماً بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار، فتقول: " إني صادق " لمن ينكر صدقك، و لا يبالغ في إنكاره، و " إني لصادق " لمن يبالغ في إنكاره ⁴⁷⁸.

و يستشهد الخطيب بالقزويني بآيات من القرآن Lieزز كلامه و هي قوله تعالى:

﴿وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ، فَكَذَّبُوهُمَا، فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا: إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ، قَالُوا: مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا، وَ مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُكْذِّبُونَ، قَالُوا: رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴾ ⁴⁷⁹ حيث قال الله تعالى في المرة الأولى:

﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ و في الثانية ﴿إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴾.

و بعد هذا الشرح يؤكد القزويني لنا كلامه بالعودة إلى المبرد و كأنه يثبت لنا أن جواب المبرد هو الأصل الذي أخذ منه هذه المعلومات فيقول « و يؤيد ما ذكرناه جواب أبي العباس للكندي عن قوله: إني أجد في كلام العرب حشواً، يقولون: " عبد الله قائم " و " إن عبد الله قائم " و " إن عبد الله لقائم " و المعنى واحد، بأن قال: بل

⁴⁷⁸ - الإيضاح في علوم البلاغة و المعاني و البيان و البديع: الخطيب القزويني- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان-

ط1- دت: 23.

⁴⁷⁹ - سورة يس: الآيات من 13 إلى 16..

المعاني مختلفة: فـ"عبد الله قائم" إخبار عن قيامه، و "إن عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل، و "إن عبد الله لقائم" جواب عن إنكار منكر".⁴⁸⁰

ثم يقدم القزويني مسميات لهذه الأنواع من الخبر و يسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيا، و الثاني طلبيا، و الثالث إنكاريا، و إخراج الكلام على هذه الوجوه إخراجا على مقتضى الظاهر.⁴⁸¹

و يضيف القزويني إخراجا آخر للكلام و هو إخراجه على خلاف الظاهر و يذكر منه ثلاث اعتبارات⁴⁸²:

1- ينزل غير السائل منزلة السائل: إذا قام إليه ما يلوح له بحكم الخبر، فيستشرق له استشرق المتردد الطالب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ﴾⁴⁸³ و قوله: ﴿وَأَبْرَأُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾⁴⁸⁴ و قول بعض العرب:

فَعَنَّا، وَ هِيَ لَكَ الْفِدَاءُ **** إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْحِدَاءُ

و سلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة و غموض.

2- ينزل المنكر منزلة غير المنكر: « إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار، كقوله:

جَاءَ شَقِيقُ عَارِضًا رُحْمُهُ *** إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحُ

فإن مجيئه هكذا، مدلا بشجاعته، قد وضع رحمه عارضا: دليل على إعجاب شديد منه، و اعتقاد أنه لا يقوم من بني عمه أحد، كأنهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح .

⁴⁸⁰ - الإيضاح: 24.

⁴⁸¹ - ينظر: الإيضاح: 24.

⁴⁸² - الإيضاح: 24-25-26.

⁴⁸³ - سورة هود: 37.

⁴⁸⁴ - سورة يوسف: 53..

3- ينزل المنكر منزلة غير المنكر: إذا كان معه ما إن تأمله ارتدع عن الإنكار، كما يقال لمنكر الإسلام: "الإسلام حق" و عليه قوله تعالى في حق القرآن: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾⁴⁸⁵.

و يتفرع على هذين الاعتبارين عند القزويني قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾⁴⁸⁶ إذ يبين لنا ما وقع في الآية من تأكيد و إنكار فيقول: «أكد إثبات الموت تأكيدين -و إن كان مما لا ينكر- لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالي في إنكار الموت، لتماديهم في الغفلة، و الإعراض عن العمل لما بعده، و لهذا قيل "ميتون" دون "تموتون" ...، و أكد إثبات البعث تأكيدا واحدا -و إن كان مما ينكر- لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرا بأن لا ينكر. بل إما أن يعترف به، أو يتردد فيه؛ فنزل المخاطبون منزلة المترددين تنبيها لهم على ظهور أدلته، و حثا على النظر فيها، و لهذا جاء "تبعثون" على الأصل»⁴⁸⁷.

كما خصص القزويني فصلا "للقول في التشبيه" ذلك لأنه يرى أن التشبيه اتفق العقلاء على شرف قدره، و فخامة أمره في فن البلاغة، و أن تعقيب المعاني به يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا كانت أو ذما، أو افتخارا، أو غير ذلك⁴⁸⁸. و لقد تناول فيه بعض الأبيات التي أوردها المبرد في كتابه الكامل منها قول الآخر في صفة مصلوب:

كَأَنَّهُ عَاشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ *** يَوْمَ الْوَدَاعِ إِلَى تَوْدِيعِ مُرْتَحِلٍ

أَوْ قَائِمٍ مِنْ نُعَاسٍ فِيهِ لُوثَتُهُ *** مُوَاصِلٍ لِمَتَمِطِّهِ مِنَ الْكَسَلِ

⁴⁸⁵-سورة البقرة: 2.

⁴⁸⁶-سورة المؤمنون: 15-16.

⁴⁸⁷-الإيضاح: 26.

⁴⁸⁸- ينظر: الإيضاح: 218.

و اعتبر البيت الثاني من لطيف* التشبيه المركب في هيئة السكون ذلك لأن التفصيل فيه أنه شبه بالمتمطي إذا واصل تمطيه مع التعرض لسببه و هو اللوثة و الكسل فيه، فنظر إلى هذه الجهات الثلاث، و لو اقتصر على أنه كالمتمطي كان قريباً التناول، لأن هذا القدر يقع في نفس الرائي للمصلوب ابتداءً، لأنه من باب الجملة.⁴⁸⁹

و أضاف أبياتاً أخرى لهذا النوع من التشبيه شبيهة بالأولى و ذكرها المبرد أيضاً و هي قول الآخر:

لَمْ أَرِ صَفًّا مِثْلَ صَفِّ الزُّطِّ *** يَسْتَعِينُ مِنْهُمْ صُلْبُوا فِي خَطِّ

مِنْهُ كُلِّ عَالٍ جَذَعُهُ بِالشَّطِّ *** كَأَنَّهُ فِي جَذَعِهِ الْمَشْتَطِّ

أَخُو نُعَاسٍ جَدَّ فِي التَّمَطِّي *** قَدْ حَامَرَ النَّوْمَ وَ لَمْ يَغِطِّ

و قارن بين هذه الأبيات و الأبيات الأولى فقال: « و الفرق بين هذا و الأول صريح في الاستمرار على الهيئة و الاستدامة لها دون بلوغ الصفة غاية ما يمكن أن يكون عليها، و الثاني بالعكس ». ⁴⁹⁰

كما درس الخطيب القزويني بيت امرئ القيس المشهور و الذي عده المبرد من التشبيهات المصيبة:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَ يَابِسًا *** لَدَى وَكْرِهِا الْعُنَابُ وَ الْحَشْفُ الْبَالِي

* - و لم أجد ما ذكره جابر عصفور في مؤلفه الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي من أن عبد القاهر وصف تلك الأبيات بنفس الصفة التي وصفها المبرد و هي: تشبيه مستطرف.

⁴⁸⁹ - ينظر: الإيضاح: 236.

⁴⁹⁰ - الإيضاح: 236.

و أدرجه ضمن تشبيه المركب بالمركب لكن اعتبره مخالفتا لهذا النوع « لأن أحد الشيئين فيه الطرفين معطوف على الآخر.

أما في طرف المشبه به، فبين. و أما طرف المشبه فلأن الجمع في المتفق كالعطف في المختلف، فاجتماع شيئين أو أشياء في لفظ تشبيه أو جمع، لا يوجب أن أحدهما أو أحدها في حكم التابع للآخر، كما يكون ذلك إذا جرى الثاني صفة للأول، أو خلا منه، أو ما أشبه ذلك. و قد صرح بالعطف فيما أجراه بيانا له من قوله "رطباً و يابساً" ⁴⁹¹.

خامساً: أثره في مختلف مواضع البلاغة و اللغة

إضافة إلى ما تم ذكره فإن المبرد قد ترك أثراً في مختلف مواضع البلاغة التي قعد لها البلاغيون المتأخرون منها:

1- التقيد المعنوي:

فرق المبرد بين الكلام المعقد الغامض، و الكلام المبسوط الواضح حيث عقد مقارنة بين العباس بن الأحنف و بين قول "روح بن حاتم بن قبيصة" فقال: « قال أحد الشعراء لأهله، و هو العباس بن الأحنف*:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ مِنْكُمْ لِتَقْرُبُوا*** وَ تَسْكُبَ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

يقول: أغترب فأكسب ما يطول به مقامي معكم، و قربي منكم، فهذا أحسن. وقيل "لروح بن حاتم بن قبيصة"، و هو واقف على باب المنصور في الشمس، فقال: ليطول وقوفي في الظل، فهذا كلام مكشوف واضح، كانكشاف كلام

⁴⁹¹ - الإيضاح: 250.

* - ديوان العباس بن الأحنف- دار صادر بيروت- لبنان- ط1- 1398هـ-1978م: 115.
* - روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب الأزدي: أمير من الأجواد الممدوحين، و الله الرشيد على القبروان سنة 171هـ فاستمر إلى أن مات فيها سنة 174هـ، 791م. كان موصوفاً بالعلم و الشجاعة و الحزم. ينظر: الأعلام: 34/3.

"الربيع" ⁴⁹².

فالمبرد يشبه الكلام الواضح بكلام الربيع في الحسن و الجمال، و هو أفضل من الكلام الغامض المعقد لأي سبب كان، فالمبرد يرى في بيت عباس بن الأحنف شيئاً من الغموض، لأن الوصول إلى المعنى المراد، و هو جعل جمود العين كناية عن المسرة غير واضح تمام الوضوح، لأن الجمود هنا كناية عن البخل بذرف الدموع، و ليس كناية عن المسرة. ⁴⁹³

و ما فهم من كلام المبرد هو ما عبر عنه البلاغيون بالتعقيد المعنوي الذي يخل بفصاحة الكلام و عرفوه بقولهم: « هو: أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني - الذي هو لازمه و المراد به - ظاهراً، كقول العباس بالأحنف ». ⁴⁹⁴

2- التعقيد اللفظي:

كذلك تناول المبرد ما سمي فيما بعد بالتعقيد اللفظي عندما درس بيت الفرزدق و قال: « و من أقبح الضرورة، و أهجن الألفاظ و أبعد المعاني قوله يعني الفرزدق:

وَ مَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا *** أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ » ⁴⁹⁵.

لاحظ المبرد ما في البيت من تعقيد سببه ما فيه من تقديم و تأخير، و انفصال الكلام بعضه عن بعض، « فالمبتدأ منفصل عن الخبر، و النعت منفصل عن المنعوت، و المستثنى لم يعقب المستثنى منه، كل هذا واضح من كلام المبرد حين وضع الكلام في موضعه، و فسر معنى البيت بما يقتضيه مراد الشاعر. و المتأخرون حين يقولون عن البيت نفسه إن الفرزدق، فصل بين أبو أمه و هو مبتدأ، و أبوه و هو خبر، بحى و هو أجنبي، و كذا فصل بين حي و يقاربه و هو نعت حي، و أبوه و هو أجنبي

⁴⁹² - البلاغة لأبي العباس: 85-86.

⁴⁹³ - ينظر: أثر النحاة في الدرس البلاغي: 206.

⁴⁹⁴ - الإيضاح: 8-9.

⁴⁹⁵ - الكامل: 18/1.

و قدم المستثنى على المستثنى منه، فهو كما تراه في غاية التعقيد. و لم يخرجوا في هذا القول عن فحوى كلام المبرد السالف الذكر»⁴⁹⁶.

و يبدو أثر المبرد واضحا على المتأخرين إذ أن البيتين اللذين ساقهما المبرد لما تحدث عن التعقيد اللفظي و التعقيد المعنوي هما البيتان اللذان يترددان في كتب البلاغة عند المتأخرين كأن الأدب العربي كله قد خلا من أمثلة التعقيد بشقيه، و لم يكن فيه غير هذين البيتين فحسب.

3-التجريد:

لم يقتصر حديث المبرد على علم المعاني و البيان فقط بل جاوزه إلى الحديث عما سماه المتأخرون بالتجريد إذ قال في "الكامل":
قال الأعشى:⁴⁹⁷

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمَطِيَّ وَ لَا *** يَشْرَبُ كَأْسًا بِكَفٍّ مَنْ بَحَلَا

يقول: « إنما تشرب بكفك و لست ببخيل ». ⁴⁹⁸

يرى المتأخرون أن هذا البيت يحتوي على التجريد، و « هذا التجريد كناية عن الكرم ». ⁴⁹⁹

كما ذكر المبرد بيتا آخر للأعشى فقال:

« و قوله بأزفار فالزفر الحمل و يضرب مثلا للرجل فيقال أنه لزفر أي حمّال للأثقال و يقال أتى حملة فازدفره. قال أبو قحافة أعشى ⁵⁰⁰ باهلة:

أَخُو رَغَائِبٍ يُعْطِيهَا وَ يَسْأَلُهَا *** يَأْبَى الظَّلَامَةَ مِنْهُ النَّوْفُلُ الزُّفْرُ

⁴⁹⁶ - أثر النحاة في البحث البلاغي: 206-207.

⁴⁹⁷ - ديوان الأعشى: دار صادر بيروت- ط1- دت: 171.

⁴⁹⁸ - الكامل: 35/1.

⁴⁹⁹ - أثر النحاة في البحث البلاغي: 222.

⁵⁰⁰ - البيت غير موجود في الديوان.

و إنما يريد بهينه كقولك لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد، و قوله النوفل من قولهم إنه لذو فضل و نوافل⁵⁰¹.

و التجريد كما عرفه المتأخرون لون بديعي و هو: «أن ينتزع من أمر ذي صفة أمرا آخر مثله فيها مبالغة في كمالها في المنتزع منه حتى يصير منها»⁵⁰².
و أقسامه كثيرة منها⁵⁰³:

- ما يكون بواسطة (من التجريدية) كقولهم: لي من فلان صديق حميم أي بلغ فلان من الصداقة حدا صح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها.

- ما يكون بواسطة (الباء التجريدية) الداخلة على المنتزع منه كقولهم: لئن سألت فلانا لتسألن به البحر أي بالغ في اتصافه بالسماحة حتى انتزع منه بحرا فيها.
- ما لا يكون بواسطة كقول (قتادة بن مسلمة الحنفي):

فَأَيْنَ بَقِيَتْ لَأَرْحَلَنَّ بَعْرُوزَ *** تَحْوِي الْعَنَائِمَ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمٌ

عنى بالكريم نفسه و كأنه انتزع من نفسه كريما مبالغة في كرمه و قيل تقديره: أو يموت مني كريم فيكون من قبيل لي من فلان صديق حميم فلا يكون قسما. و فيه نظر لحصول التجريد و تمام المعنى بدون هذا التقدير.
- ما يكون بطريقة الكناية كقول الأعشى:

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمِطْيَ وَ لَا *** يَشْرَبُ كَأْسًا بِكَفٍّ مَنْ بِحَلَا

⁵⁰¹ - الكامل: 36/1.

⁵⁰² - الإحاطة في علوم البلاغة: عبد اللطيف شريقي- زبير دراقى- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ط1- 2004م:

177.

⁵⁰³ - نفسه: 178.

أي يشرب الكأس بكف الجواد فانتزع منه جوادا يشرب هو يكفه عن طريق الكناية لأن الشرب يكف غير البخيل يستلزم الشرب بكف الكريم و هو لا يشرب إلا بكف نفسه، فإذا هو ذلك الكريم.

- ما يكون بمخاطبة الإنسان نفسه كقول الأعشى:⁵⁰⁴

وَدَّعْ هُرَيْرَةً إِنَّ الرُّكْبَ مُرَجِّلٌ *** وَ هَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ؟

عرف سيبويه التجريد ثم سكت عنه النحاة قرنا كاملا حتى رأيناه مرة أخرى في الكامل للمبرد، فيذكر للتجريد أمثلة ترددت في كتب البلاغيين المتأخريين.⁵⁰⁵ لا شك أن المبرد في باب التجريد قد خطا خطوات عما تركه سيبويه، و أغفله الفراء و ابن قتيبة حتى كاد أن يقبر لولا أن المبرد قد نفخ فيه من جديد فأيقظ الحديث عنه بعد طول سبات.⁵⁰⁶

4-الف و النشر:

لعل حديث المبرد عن الف و النشر أول حديث وصل إلينا، فنحن لا نعرف عنه شيئا من قبل، لا عند سيبويه و لا غير سيبويه، حتى نهاية القرن الثالث الهجري على يدي المبرد، و قد كان حديثه شافيا بحيث لم يضيف المتأخرون إلى جوهره شيئا مذكورا.⁵⁰⁷

و يعرض المبرد للف و النشر عند قوله: « و قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: ما أحسن الحسنات في آثار السيئات، و أقبح السيئات في آثار الحسنات و أقبح من ذا، و أحسن من ذاك، السيئات في آثار السيئات، و الحسنات في آثار

⁵⁰⁴-ديوان الأعشى: البيت غير موجود في الديوان.

⁵⁰⁵- ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي: 222.

⁵⁰⁶-ينظر: نفسه: 223.

⁵⁰⁷- ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي: 223.

الحسنات، و العرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمي بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره». ⁵⁰⁸

و أيضا عندما تناول الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ، وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ⁵⁰⁹ و شرحها بقوله: «علما بأن المخاطبين يعرفون وقت السكون، و وقت لاكتساب». ⁵¹⁰

و يعد المتأخرون اللف و النشر من المحسنات البديعية المعنوية و يقولون في تعريف: «هو متعدد على التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه لعلمه بذلك بالقرائن اللفظية و المعنوية» ⁵¹¹، و هو نوعان ⁵¹²:

- أن يكون النشر فيه على ترتيب اللف كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ، وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالسكون راجع إلى الليل و الابتغاء من فضل الله راجع إلى النهار على الترتيب.

- أو أن يكون النشر على خلاف ترتيب الطي أو اللف كقوله تعالى: ﴿فَمَعْرِفَاتُنَا آيَةُ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا مَحَدَ السَّاعَةِ وَ الْحِسَابِ﴾ ⁵¹³ فذكر ابتغاء الفضل للثاني و علم الحساب للأول على خلاف الترتيب. و من هذا الضرب ما يكون معكوس الترتيب كقول ابن حيوس: ⁵¹⁴

كَيْفَ أَسْلُو وَ أَنْتَ حَقْفَ وَ غَضْنَ *** وَ غَزَالَ لِحْظًا وَ قَدًّا وَ رَدْفًا

⁵⁰⁸ - الكامل: 75/1.

⁵⁰⁹ -سورة القصص: 73.

⁵¹⁰ - الكامل: 41/2.

⁵¹¹ - الإحاطة في علوم البلاغة: 78.

⁵¹² - نفسه: 78-79.

⁵¹³ -سورة الإسراء: 12.

⁵¹⁴ - ديوان ابن حيوس: تحقيق خليل مروم بك- دار صادر بيروت- دط- 1404هـ- 1984م: 337.

فالحظ للغزال، و القد للغصن، و الردف للحقف و هو الرمل العظيم المستدير .

5- أثر المبرد في فقه اللغة:

كان للمبرد أثر بارز في فقه اللغة حيث أفرد "الاشتقاق" بكتاب مستقل غير أنه لم يصل إلينا، و قد أكثر في "الكامل" من التعرض لبيان اشتقاق كثير من الكلمات اللغوية « و قد يكون أول من عني بالظاهرة اللغوية، و هي دوران المادة حول معنى واحد، فقد عرض لها في جملة صور في الكامل ».⁵¹⁵

من أمثلة ذلك قوله: « الجنين: ما لم يظهر بعد يقال للقبر: جنن، و الجنين: الذي في بطن أمه. و الجن: الترس لأنه يسترك، و المجنون: المعطى العقل، و يسمى الجن جنا لاختفائهم، و تسمى الدروع الجن لأنها تستر من كان فيها ».⁵¹⁶

و قال في البيت: أَلَسْتُ أَرُدُّ الْقِرْنَ يَرْكَبُ رِدْعَهُ

« فإنما اشتقاقه من السهم، يقال: ارتدع السهم، إذا رجع النصل متأخرا في السنخ، و يقال: ركب البعير ردعه: إذا سقط. فدخلت عنفة في جوفه - فالكلام مشتق بعضه من بعض، و مبين بعضه بعضا فيقال من هذا في المثل: ذهب فلان في حاجتي فارتدع عنها: أي رجع. و كذلك: فلان لا يرتدع عن قبيح، و الأصل ما ذكرت لك أولا ».⁵¹⁷

و قال في موضع آخر « و أصل العَقَّ القطع في هذا الموضع، و للعق مواضع كثيرة، يقال: عق والديه يعقهما إذا قطعهما، و عقت عن الصبي من هذا، و قالوا: بل هو من العقيقة و هو الشعر الذي يولد الصبي به، يقال فلان بعقيقته، إذا كان بشعر الصبا لم يحلقه، و يقال: سيف كأنه عقيقة: أي كأنه لمعة برق، يقال: رأيت

⁵¹⁵ - المقتضب لأبي العباس: 52.

⁵¹⁶ - الكامل: 23/3.

⁵¹⁷ - الكامل: 145/1.

عقيقة البرق يا فتى. أي اللمة منه في السحاب، و يقال فلان عقت تيمة ببلد كذا
أي قطعت عنه في ذلك الموضع». ⁵¹⁸

من اللغويين المتأخرين الذين تأثروا بدراسة المبرد ابن جني و ابن فارس إذ عني
بهذه الظاهرة اللغوية أبو الفتح بن الجني في الخصائص، كما ألف أحمد بن فارس كتابه
(مقاييس اللغة) لتطبيق هذه الظاهرة في مواد اللغة.

⁵¹⁸ نفسه: 57-56/2.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة و في ضوء استقرائي لمدخل البحث و فصوله توصلت إلى النتائج

العلمية التالية:

- المبرد يعرض لأبيات التشبيه و هو على طريقة اللّغويين المحاضرين يفسر لغويا مفردات البيت مستشهدا لتفسيره بأبيات أخرى، و قد يتتبع معنى البيت لدى شعراء آخرين.
- بدأ باب التشبيه بتشبيهات الشعراء الجاهليين فالأمويين فالعباسيين، و كان يتمثل أحيانا بأخبار أو شواهد شعرية من مختلف العصور.
- يسوق المبرد التشبيهات التي تعالج صورة معينة كخفقان القلب مثلا، صفة تغير المياه.
- على الرغم من غزارة الأسماء التي أطلقها المبرد على ألوان التشبيه و الأقسام التي عدّها، فإنه لم يشر أية إشارة إلى التشبيه المعكوس الذي ظفر فيها بعد بنصيب وافر من الحديث و خاصة عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة.
- و ربما يكون المبرد قد تركه، لأن الحديث عن أقسام التشبيه كافة على حد قوله، لا ينتهي. و لذلك فهو يقول: « و التشبيه كثير، و هو باب كأنه لا آخر له، و إنّما ذكرنا منه شيئا لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من المعاني». و كأنّه بذلك يعلل عدم ذكره لكل ألوان التشبيه و أقسامه.
- ينص المبرد في نهاية هذا الباب على أنّ التشبيه طويل، لكنّه لم يرد أن يخلى كتابه هذا من المعاني، و واضح من حديثه أن مصطلح التشبيه هنا إنّما هو بمعنى الوصف كغرض من أغراض الشعر و ليس الصورة البيانية بمصطلح البلاغيين.
- نلاحظ أن المبرد يعتبر التشبيه معنى من المعاني، و ليس مجرد صنعة لفظية و ركنا من أركان البديع كما كان عند سابقيه و لذلك فهو يقول « إنّما ذكرنا منه شيئا لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من المعاني». و هذا يفيد أن التشبيه ليس بمجاز عند المبرد بل هو حقيقة.
- إن المبرد أعطانا صورة للذوق العربي الخالص لأن ثقافته عربية خالصة لم تشب بعلم أجنبي فهو ينقد نقدا تأثريا ما يستحسنه من تشبيهات. و هذا النقد قائم على

الإحساس بأثر الشعر في النفس، و على مقدار وقع الكلام عليه، فالحكم مرتبط بهذا الإحساس قوة و ضعفا، و المبرد يحس أثر الشعر إحساسا فطريا لا تعقيد فيه، و يتذوقه جبلة و طبعا.

- إن المبرد نقل التشبيه نقلة واسعة، و وسع مباحثه و هيأ له فرصة الشيوخ، إلا أنّ تلك التقسيمات التي حدّدها لم يضع لها حدودا تميز كل نوع عما مضى، كما أنه حكم على بعضها بالحسن، أو القبح دون أن يعلل لذلك، و لكنه في عصره المبكر لم يكن ينتظر منه أكثر من هذا.

- لقد كانت شواهد دخر لمن درس التشبيه بعده، و ذكر أنه لم يعن بتعريف و لا تحديد و لا ضبط للأقسام، فهو إذا قسم عرف كل قسم بشواهد و مثله و لم يذكر ضابطا واحدا فيما كتب عن التشبيه، و ربما هذه هي القيمة الكبرى لبحثه في التشبيه.

- كانت هذه النتائج حوصلة ما أمكنني التوصل إليه خلال بحثي هذا، الذي يعد عملا متواضعا في البحث العلمي، و أرجو أن أكون قد ساهمت و لو بقليل في إثراء الدراسات و البحوث العلمية و يساعد على نبوغ دراسات أكثر في المستقبل، أتمنى أن أكون قد وفقت فيه، و ما التوفيق إلا من عند الله .

و الله ولي التوفيق

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.
- ابن المعتز و تراثه في الأدب و النقد و البيان-محمد عبد المنعم خفاجي- دار الجيل- بيروت- ط2- 1411هـ/1991م.
- أبو العباس المبرّد و أثره في علوم العربية لمحمد عبد الخلق عزيمة- مكتبة الرشد- الرياض- ط1- 1405هـ.
- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلا، قدم له محمد خلق الله أحمد- مكتبة الشباب- ط1- د.ت.
- أثر النحاة في البحث البلاغي- عبد القادر حسين- دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع- القاهرة- ط1- د.ت.-.
- الإحاطة في علوم البلاغة- عبد اللطيف شريفى، زبير دراقي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ط1- 2004.
- أسرار البلاغة في علم البيان- الإمام عبد القاهر الجرجاني صححها على نسخة الإمام الشيخ محمد عبده التي قرأها دروسا في الجامع الأزهر- و أودع فيها جلّ تعليقاته على حواشيها و علق حواشيها محمد رشيد رضا- دار المعرفة- بيروت- لبنان- ط2- د.ت.
- الأعلام- قاموس التراجم- خير الدين الزركلي- دار العلم للملايين- بيروت- لبنان- ط7- 1986.
- الإيضاح في علوم البلاغة و المعاني و البيان و البديع- الخطيب القزويني- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- د.ت.
- البحث البلاغي عند العرب تأصيل و تقييم- شفيع السيد- دار الفكر العربي- ط2- 1416هـ/1996م.

البديع - عبد الله بن المعتز - اعتنى بنشره و تعليق المقدمة و الفهارس اغناطيوس كراتشكوفسكي - دار المسيرة - ط2 - 1399هـ/1979م.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة للحافظ جلال الدين عن الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - المكتبة العصرية - صيدا بيروت - ط1 - ج1 - د.ت. بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ - دراسة تاريخية فنية مقارنة - لفتحي أحمد عامر - منشأة المعارف بالإسكندرية - ط1 - د.ت.

البلاغة تطور و تاريخ - لشوقي ضيف - دار المعارف - ط7 - 1965. البلاغة العربية في فنونها - محمد علي السلطاني - مطبعة زيد بن ثابت - ط1 - 1979م/1980م.

البلاغة - أبي العباس محمد بن يزيد المبرد - حققها و قدم لها ووضع فهارسها رمضان عبد التواب - مكتبة الثقافة الدينية - ط2 - 1405هـ/1985م.

تأويل مشكل القرآن - أبي عبيدة محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة - شركة السيد أحمد صقر - المكتبة العلمية - ط1 - د.ت.

تهذيب اللغة - أبي منصور محمد بن أحمد بن الزهر الأزهرى الهروي المتفى 370هـ - تحقيق أحمد عبد الرحمن مخيمر - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط1 - 2004.

البيان و التبيين - لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق درويش جويدي - المكتبة العصرية - صيدا بيروت - 1429هـ/2001م.

البيان العربي لبدوي طبانة - دار الثقافة بيروت لبنان - ط1 - 1406هـ/1985م. البيان فن الصورة - لمصطفى الصاوي الجويني - دار المعرفة الجامعية - اسكندرية - 1993م. البيان في ضوء أساليب القرن الكريم - عبد الفتاح لاشين - دار الفكر العربي - ط2 - 1420هـ/2000م.

- تاريخ بغداد أو مدينة السلام- للخطيب البغدادي- دار الكتب العلمية- بيروت لبنان- ط1- د.ت- ج3.
- تاريخ النقد الأدبي و البلاغة حتى أواخر القرن الرابع الهجري- لمحمد زغلول سلام- منشأة المعارف الإسكندرية- ط3- د.ت.
- التفكير البلاغي عند العرب أسسه و تطوره إلى القرن السادس- لحماي صمود- منشورات الجامعة التونسية- طبع بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية- ط1- 1981م.
- تفسير غريب القرآن- لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة- شرحه إبراهيم محمد رمضان- مكتبة الهلال بيروت- ط1- 1991م.
- التعبير الزمني عند النحاة العرب حتى القرن الثالث- ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية- ج2.
- التعبير الفني في القرآن- لبكري شيخ أمين- دار العلم للملايين- بيروت لبنان- ط6- 2001م.
- التلخيص في علوم القرآن- ضبط و شرح عبد الرحمن البرقوقي- دار الكتاب العربي لبنان- ط1- 1904م.
- الجامع لأحكام القرآن- لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القوطي- اعتنى به و صححه الشيخ هشام سمير البخاري- دار إحياء التراث العربي- بيروت لبنان- ط1- 1466هـ/2001م- ج1.
- الحيوان للجاحظ- تحقيق و شرح عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت- ط1- 1416هـ/ 1996م.
- الخصائص لابن جني- تحقيق محمد علي النجار- دار الكتاب العربي- 1371هـ/1956م.
- الخصومة بين القدماء و المحدثين في النقد العربي القديم تاريخها و قضاياها- لعثمان موافي- دار المعرفة الجامعية- ط3- 1995م.

دلائل الإعجاز في علم المعاني - للإمام عبد القاهر الجرجاني صحح أصله علامتا المعقول و المنقول الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية و الشيخ محمد محمود التركيبي الشنقطي - علق عليه محمد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت - ط3 - 1421هـ/2001م.

ديوان ابن حيوس - تحقيق خليل مروم بك - دار صادر بيروت - ط1 - 1404هـ/1984م.

ديوان أبي الشمقمق - جمعه و حققه و شرحه واضح محمد الصمد - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط1 - 1415هـ/1995م.

ديان أبي نواس - دار صادر بيروت - ط1 - د.ت.

ديوان الأعشى - دار صادر بيروت - ط1 - 1414هـ/1994م.

ديوان امرئ القيس - دار صادر بيروت - ط1 - د.ت.

ديوان أوس بن حجر - تحقيق محمد بن يوسف نجم، دار صادر بيروت - ط2 - د.ت.

ديوان بشار بن برد - جمع و تحقيق و شرح الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - الشركة التونسية للتوزيع - ط1 - 1976.

ديوان توبة بن الحمير - عني بتحقيقه و شرحه خليل ابراهيم عطية - دار صادر - بيروت - ط1 - 1998م.

ديان جرير - دار صادر بيروت - ط1 - 1991م.

ديوان الخطيئة - رواية حبيب عن ابن الأعرابي و أبي عمرو الثيباني - شرح أبي سعيد السكري - دار صادر بيروت - ط1 - د.ت.

ديوان الخنساء - دار بيروت للطباعة و النشر - ط1 - 1398هـ/1978م.

ديوان دعبل بن علي الخزاعي - جمعه و حققه محمد يوسف نجم - نشر و توزيع دار الثقافة - بيروت - لبنان - ط1 - 1409هـ/1989م.

ديوان ذي الرمة - و هو غيلان بن عقبة العدوي - راجعه و قدم له و أتم شروحه و تعليقاته زهير فتح الله - دار صادر - بيروت - ط1 - 1995.

ديوان زهير بن أبي سلمى - دار صادر بيروت - ط1 - د.ت.

- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني- حققه و شرحه صلاح الدين الهادي- دار المعارف بمصر- ط1- 1388هـ/1968م.
- ديوان العباس بن الأحنف- دار صادر - بيروت- لبنان- ط1- 1398هـ/1978م.
- ديوان عنتره- دار صادر- بيروت- ط1- 1416هـ/1996م.
- ديوان الفرزدق- دار صادر للطباعة و النشر بيروت- 1380هـ/1960م- ط1.
- ديوان النابغة الذبياني- تحقيق وشرح كرم البستاني- دار صادر- بيروت- ط1- دت.
- الشعر و الشعراء- لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة- قدم له و راجعه حسن تميم و محمد عبد المنعم العريان- دار إحياء العلوم بيروت- ط5- 1414هـ/1994م.
- شعر الهذيليين في العصرين الجاهلي و الإسلامي- أحمد كمال زكي- دار الكاتب العربي للطباعة و النشر- 1389هـ/1969م- ط1.
- 1 الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي- لجابر أحمد عصفور- دار الثقافة للطباعة و النشر بالقاهرة- ط1- د.ت.
- الصناعتين الكتابة و الشعر- أبي هلال العسكري- تحقيق علي محمد بجاوي و محمد أبو الفضل ابراهيم- دار الفكر العربي- ط2- د.ت.
- العمدة في محاسن الشعر و آدابه- للإمام أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني- تحقيق محمد قزقران- دار المعرفة- بيروت- ط1- 1987م- ج2.
- علم المعاني- البيان- البديع لعبد العزيز عتيق- دار النهضة العربية للطباعة و النشر- بيروت- ط1- د.ت.
- عيون الأخبار- ابن قتيبة- إعادة طبعه دار الكتاب العربي- دار الكتب المصري- ط1- 1925م- ج2.
- عيار الشعر- محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي- دراسة و تحقيق و تعليق محمد زغلول سلام- منشأة المعارف بالإسكندرية- ط3- د.ت.

الفهرست- محمد بن اسحاق النديم- حققه و قدم له مصطفى الشويهي- دار التونسية للنشر- ط1- 1406هـ/1985م.

في إنباه الرواة على أنباه النحاة- لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي- تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم- دار الفكر العربي- القاهرة- مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت- ط1- 1406هـ/1976م- ج3.

في طبقات النحويين اللغويين- للزيدي الأندلسي- تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم- دار المعرفة- ط1- 1979م.

في تاريخ البلاغة العربية- لعبد العزيز عتيق- دار النهضة العربية- لبنان- ط1- د.ت.

الكامل -لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد عارضه بأصوله و علق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم و السيد شحاته- دار النهضة مصر للطبع و النشر- ط1- د.ت.

الكامل في اللغة و الآداب- للعلامة أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي المتوفي 285هـ- مؤسسة المعارف بيروت- ط1- د.ت.

الكتاب- لسيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر- تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون- دار الكتب العلمية- بيروت- مكتبة الخانجي القاهرة- ط1- د.ت.

الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل-لأبي القاسم جار الله، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي- دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع- ج1.

لسان العرب- ابن منظور- دار صادر- بيروت لبنان- ط3- 1414هـ/1954م.

المختصر في تاريخ البلاغة- عبد القادر حسين- دار الشروق- ط1- 1402هـ/1982م.

المرايا المقعرة"نحو نظرية نقدية عربية"- عبد العزيز حمودة- الكويت سلسلة عالم المعرفة- إصدار المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب- اغسطس/2001م.

المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها و تطورها حتى القرن السابع الهجري- لأحمد جمال العمري- مكتبة الخانجي بالقاهرة- ط1- 1410هـ/1990م.

مجاز القرآن- أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي- تحقيق محمد فؤاد سركين- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط2- 1981م.

معاني القرآن- الفراء أبي زكرياء يحيى بن زياد- عالم الكتب- ط3- 1973م.
الموشح: مآخذ العلماء على الشعراء، في عدة أنواع من صناعة الشعر- للمرزباني- تحقيق علي محمد البجاوي- دار الفكر العربي- ط1- 1385هـ/ 1965م.

الموجز في تاريخ البلاغة- لمazen المبارك- دار الفكر- ط2- 1400هـ/ 1979م.
المقتضب- أبي العباس محمد بن يزيد المبرد- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- ط1- دت
المقدمة- لابن خلدون- دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة- بيروت لبنان- ط1- د.ت.

معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب- لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي- ط1- د.ت.

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي عن الكتب الستة و عن مسند التارمي و موطأ مالك و مسند أحمد بن حنبل- ابتداء ترتيبه و تنظيمه و نشره أ . ي . ونسك وي . ب . منسج- أتبّع نشره ي. بروخمان- مطبعة بريل في مدينة ليدن- ط1- 1967م.

المصطلح النحوي: نشأته و تطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري- لعوض حمد القوزي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1983م- ط1.

المختصر في تاريخ البلاغة- لعبد القادر حسين- دار الشروق- ط1- 1402هـ/ 1982م.
المدارس النحوية- شوقي صنيف- دار المعارف بمصر- ط1- د.ت.
النبا العظيم "نظرات جديدة في القرآن"- لمحمد عبد الله دراز- دار القلم الكويت- ط4- 1977م.

النص الشعري و مشكلات التفسير- عاطف جودة نصر- مكتبة لبنان- ط1- 1996م.
نظرية النظم- صالح بلعيد- دار هومة- الجزائر- ط1- 2002م.

النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين - محمد الصغير بناني - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائرية - ط1 - 1994م.
نقد النثر - أبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - ط1 - 1402هـ/1982م.
نقد الشعر - أبي الفرج قدامة بن جعفر - تحقيق و تعليق محمد عبد المنعم خفاجي - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - ط1 - دت .
وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان - لابن خلكان - دار صادر بيروت - ج4.

الدوريات:

صور البيان في تفسير الزمخشري - عبد الجليل مصطفىاوي - رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في اللغة - 1421هـ/2000م.

فهرس

أد	المقدمة
36-01	المدخل: المبرك حياته و جهوده العلمية و البلاغية
18-01	أولاً: التعريف بالمبرك
06-01	1- حياته
07-06	2- سبب تلقيبه بالمبرك
08-07	3- صفاته
11-09	4- تلامذته
-12-	5- ثقافته
14-12	6- مكانته العلمية
18-14	7- مؤلفاته
36-18	ثانياً: جهوده النحوية و البلاغية
24-18	1- جهوده النحوية
27-24	- المبحث الأول: علم المعاني
25-24	1- أضرب الخبر
-25-	2- الاستفهام
-26-	3- الالتفات
27-26	4- التعقيد اللفظي
34-27	- المبحث الثاني: علم البديع و البيان
-27-	1- التشبيه
29-27	2- الكناية
32-30	3- صور من المجاز
34-32	4- الاستعارة

36-34	5- مساهمته النقدية
72-37	الفصل الأول: التشبيه قبل المبرد
38-37	تمهيد
41-38	أولاً: التشبيه عند سيوريه
44-41	ثانياً: التشبيه عند الفراء
47-44	ثالثاً: التشبيه عند أبي حبيدة
60-47	رابعاً: التشبيه عند الجاحظ
72-61	خامساً: التشبيه عند ابن قتيبة
105-73	الفصل الثاني: التشبيه عند المبرد
75-73	تمهيد
77-75	أولاً: التشبيه
105-77	ثانياً: أقسامه
79-77	1- التشبيه المصيب
83-80	2- التشبيه المتجاوز المفرط
84-83	3- التشبيه المقارن
86-85	4- التشبيه البعيد
87-86	5- التشبيه المليح
89-88	6- التشبيه الجيد
91-90	7- التشبيه الحسن
93-92	8- التشبيه العجيب
94-93	9- التشبيه المحمود
95-94	10- التشبيه المختصر

96-95	11- تشبيهات غريبة مفهومة
101-96	12- التشبيه المطرد
102-101	13- تشبيه المحدثين المستطرف
105-103	14- تشبيه المحدثين السخيف
134-106	الفصل الثالث: أثر المبرد في المتأخرين
-106-	تمهيد
107-106	أولاً: ابن المعتز
111-107	ثانياً: قدامة بن جعفر
122-111	ثالثاً: عبد القاهر الجرجاني
127-123	رابعاً: الخطيب القزويني
134-127	خامساً: أثره في مختلف مواضع البلاغة و اللغة
128-127	1- التعقيد المعنوي
129-128	2- التعقيد اللفظي
131-129	3- التجريد
133-131	4- اللفظ و النشر
134-133	5- أثره في فقه اللغة
136-135	الخاتمة
143-137	قائمة المصادر و المراجع